

روايات جائزة نوبل

روجيه مارتن دوجار

فرنسا العجوز

ترجمة: محمود قاسم

8.8.2017

الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

فرنسا العجوز

VIEILLE FRANCE

تأليف

روجيه مارتن دو جارد

ROGER MARTIN DU GARD

نوبل 1937

ترجمة

محمود قاسم

الدار المصرية اللبنانية

روايات جائزة نوبل

فرنسا العجوز

VIEILLE FRANCE

مارتن جار، روجيه.

فرنسا العجوز VIEILLE FRANCE : تأليف روجيه مارتن دوجار؛ ترجمة
محمود قاسم. - ط 1. - القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
184 ص؛ 20 سم.

تدمك : 1 - 793 - 427 - 977 - 978

1 - القصص الفرنسية.

أ - قاسم، محمود (مترجم). 296

رقم الإيداع : 2014 / 11833

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة.

تليفون: +202 23910250

فاكس: +202 23909618 ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : شعبان 1435 هـ - يونيو 2014 م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي
مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس
منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن
كتابي مسبق من الدار.

إهداء

إلى كريستين وإلى مارسيل كوييه

ر.م.ج

استيقاظ موزع البريد

حك «جوانيو» عود ثقاب

1

استدارت «لاميلي» نحو الحائط بغضب:

- «كم الساعة؟»

- «وربع»

زمجر وهو يغادر السرير، ويدفع مصراعي النافذة، أشرقت الشمس مبكرة في نهاية شهر يوليو. يالها من أمور. السماء وردية، تورد البيوت النائمة وتورد أيضا أرض المكان الصحراوي، حيث تتحدد ظلال الأشجار، وكأننا في السماء.

ارتدى «جوانيو» بنطاله، وأسرع نحو الفناء وهو يلحق مياهه. إنه شيطان كبير، فلاح يميل إلى الشقرة، حيث يمتزج التراب والريح والشمس بصبغ البشرة.

وفي خلال ثلاث دقائق، كان مستعدا، متأهبا، ممشطا بتسريحة تناسبه حتى المساء.

نامت «لاميلي» بقميصها في هذا الحر، ومدت كتفها المكتنز خارج الغطاء:

- «لا تُحدث ضجة، حتى لا يستيقظ جوزيف».

نام صبي النجار في أعلى، في الصندرة التي لم تعد تستخدم في شيء ما دام العامل ليس له ولد.

لم يَرُد «جوانيو»، تجنب أن يوقظ الغلام، وتجنب الغلام أن يستيقظ. فهو الآن واقف بقميصه حافي القدمين والأذن تترقب.

وما إن سمع العامل يرحل حتى زمجر كقرد، عند باب الحجرة.

- «كم الساعة الآن يا سيدة «جوانيو»؟».

انتظرته، قلقة وقد ثبتت عينيها على اللوحة التي لا تتحرك،

وقالت مرة واحدة:

- «تقريباً ونصف».

رأته عبر الباب الزجاجي واقفا يحك شعره بيده، وبقميصه المفكوك حول جسمه وأهدابه المرتعدة، وشفتيه الغليظتين المفتوحتين. قال:

- «حسناً».

لكنه ظل هناك لحظة، يستمع مثلك إلى الصمت.. ثم في ثلاث قفزات، اخترق الريح وعاد يتسلق صندرتة - القدر.

سمعتة السيدة «جوانيو» يغلق بابه ويلقي بنفسه على سريره،

فتنهدت وهي تتلوى وتتأب. ثم راحت تغلق المزلاج ودخلت الحمام لتغتسل وتترين.

كان مكتب «برير موييرو» يقع على مسافة خمس دقائق بالدراجة من المحطة، لكن محطة «موييرو» تقع على بعد خمس دقائق بالضبط من المكتب ناحية «بوالوران».

حمل «جوانيو» حقيبة البريد فوق كتفه، ودون أن يحدث ضجة دخل إلى محال الصيادين.

إنها قرية طويلة، ليس لها شارع جانبي سوى الطريق الذي يشقها، ويتسع - على مضض - في مركز القرية كي يحوط الكنيسة. في هذه الساعة كانت موييرو لا تزال نائمة. مثل كافتيريا الميدان (بوس) المعروفة بأنها تستيقظ مبكراً، لم تكن قد فتحت نوافذها المغلقة بعد. حتى الخباز كان مغلقاً أبوابه التي تلاصق أبواب الخبازين الآخرين. كان الخبازان هما العجوزين: «ميرلافين» الأكبر، و«ميرلافين» الأصغر، اللذين يتناوبان الليل في إعداد الخبز لكنهما في الصباح الباكر ينامان، أحدهما ينتهي من الطهي، أما الآخر فلم يكن قد بدأ البيع بعد.

كان «فيجو» يستيقظ دوماً في ساعة مبكرة، إنه يكسر حزمته أمام مجزرته قبل أن يذهب إلى عمله. صاح «جوانيو»:

- «أهلا يا أخي».

أحنى عامل السكة الحديد ظهره، وأجاب بهز رأسه، وظل محني العنق، كأنه يحمل جوال دقيق.

لقد هرب فيجو في العام الماضي سبعة عشر يوماً دون أن تصل عنه أخبار. وتدخلت الشرطة، اضطرت أن تعتبره غائباً بسبب انهيار الجسور، والهزات الأرضية. ثم - ذات صباح جميل - شوهد وسط الطريق، عيناه في محجريهما، ودراجته في الحفرة، وكيس نقوده في العشب. لم يصدق أحد كلمة واحدة من الحكاية، ولا حتى «جوانيو». ترى هل أفرط في الشراب؟ هل رحل وحده؟ أراد أن يختفي بشكل خيالي؟ كل شيء مائل هناك: أبناءه الأربعة، زوجته المريضة، رؤساؤه، ونقلته الحديدية. حاول أن ينسى كل شيء، وأن يعاود حياته بشكل أفضل، لكن ما الذي أتى به إلى هذه الحصة؟ هل هو الندم؟ أم المأساة؟ أم العادة؟ لعله الحظ الذي ساقه إلى السيد «إرنالدون»، العمدة كي يمكنه من الحصول عليه، بدافع عائلي. فالمفتش لم يكف عن تهديده بأنه سيحطم كليته.

ها هي البيوت الأخيرة، والمقبرة أيضاً وسط المقابر، يشعر دوماً بالسعادة، شاهد قبر أنزي، كم هاجر الأرحام. إنه صديق قديم، نوع من البارومتر. في أيام المطر يبدو معتماً ويمتلئ بالضباب، يكتسي باللون اللازوردي، لكن عند شروق الشمس يصبح أزرق اللون. هذا الحيوان يحب الأفق الأزرق، وقبعته اللامعة المعفرة بتراب الزجاج.

لم تبقَ سوى دفعة واحدة كي يصل إلى «يوليت» فوق الجسر الخشبي الصغير. ثم يعبره - متعشًا دائمًا - هذا الطرف من المستنقع، الواقع بين ضفتي النهر الكبير والصغير.

ويسبح أيضًا في بخار الفجر، ثم زخم من الدفقات كي يعبر فوق ظهر الحمار من الجسر الحجري القديم، إنه الآن يتجه نحو المحطة عابرا الحقول حيث تحوم الغربان. بدأت الطبيعة ذات مظهر نقي، منذ أول الصباح، وسط زقزقة الطيور المتحررة. وقد أعلنت الحرارة عن نفسها.

انكشفت بودارها في أعالي السماء. وعلى الطريق بدا الجو لطيفا، ساكنا، ومنعشا. مثل أيام الربيع الجميلة. وعشب حواف الطريق المغبر الذي اقتضمته الخراف، وقد حمرت شمس البارحة، بدا كأنه استغل هدنة الليل، والتزهير، كي يعاود الاخضرار.

راح ساعي البريد يصعد بقفزات كبيرة ودراجته في يده. يعرف كل تعرجات الأرض، وكل ترميمات الممشى، وعدد الحصى، وكل دغل صغير. لم يشغله شيء عن شروده الداخلي، لكن في انحناءة الطريق كان يتوقف دائما بضع ثوان ليطلق نظرة على مرتفعات «بوا لوران»، في الناحية التي توجد فيها كرمته. بين بؤرة مورفة الخضرة، مستديرة، وبين صف من الأشجار يقع في مهب الريح.

القطار لا يصل إلا بعد خمس وخمسين دقيقة. ودائما ما يصل «جوانيو» قبله.

فطوال اثني عشر عاما، لم يفته القطار سوى مرة واحدة. بثلاث دقائق في ذلك اليوم الذي اعتقد «جوانيو» أن المخبز يحترق. ولم يعرف قط أن أسرة «لايني» وأبناءها الصغار استطاعوا حرقها في هذه الليلة في فرنهم. بالتأكيد، هناك شيء آخر، لعل الأخشاب قد احترقت، أو بعض الجمرات القديمة، أو حفنة من الغبار. هذا ما يقولونه؟ كل شيء ممكن فهذا يسمى الجثث العفنة.

ها هي المحطة ذات الفلنكات البارزة، يصعد قليل من الدخان من سقفها، بين أوراق الصبار، وقد راح ناظر المحطة الأعزب يشعل نيرانه ليعد القهوة.

في قطار الصباح - فلامار، رجل المجموعة

2

كانت صالة الانتظار مغلقة منذ البارحة، قد تخفي
عفونة بداخلها، وقذارة أيضًا. أسفل عنبر البخار،
كدس «فلامار» رجل الفريق الأشبه بهرقل فوق
عربته سلال البضاعة

الطازجة مثلما يفعل كل صباح، بينما ساعده «لوتر» في إحضار
البضاعة من الشاحنة.

تقدم «جوانيو» ناحية الرجال الثلاثة. وقال:

- «أخبرتكم أن الجو سيكون حارًا طيلة النهار على الطريق!»

زمجر هرقل، وهو يتصبب في عرقه، دون أن يتوقف عن عمله:

- «هذا الجو الداعر!».

أما «لوتر» فقد احتفظ بإذعانه، رغم العرق الذي ينساب على
وجهه المسطح وراح المزيد من شعاع الشمس يضرب، لعل هذا
أفضل للبضاعة الطازجة حيث يكفي أن ترويهها. فالمزارع يمتلك -
في وسط حديقته - نبعًا لا ينضب.

سحب «فلامار» حمولة الشمام زكية الرائحة نحو الميزان، بينما توجه «لوتر» تجاه مكتبه لمراجعة أوراقه.

ظل ساعي البريد وحده مع الكاتب يلف سيجارته بكسل.

- «نعم، سوف تلتهب الشمس بقسوة! لقد أخبرتك بذلك يا عزيزي».

ها هو يناديه «عزيزي». إنه شخص جاء من «بافاريا» بسبب الحرب، له جسم عجيب، نما بشكل غريب من كل الأنحاء. فرأسه ثقيل وقد انقعص فوق كتفه. أما العنق فأبيض طويل، يجعله أشبه بأعناق دواجن الحقل الملوية التي أصبحت تعاني الألم لمرورها في الحظيرة. ورغم ذلك فعيناها يملأهما الحلم، وله وجه رائع، تلفه لحية مسيحية. يجلس فوق درجة سلم ويغني بصوت خفيض، أما طرف قبعته المصنوعة من قش فتبدو أشبه بهالة. ونظرته الذهبية ظلت مركزة على الساعي. تلاشت ابتسامته ببطء. فكرر كأنه يغني.. «أهلاً، يا سيد «جوانيو»». اقترب ساعي البريد من فلامار، كان رجل الفريق وحده، أمام ميزانه القباني - وهو يضع الموازين - راح يعد بصوت عالٍ حتى لا يخطئ:

«مئتان واثنان وخمسون.. وعشرون.. مئتان واثنان وسبعون...»
على وجهه المجدد بدت بشرته المحمصّة، وقد غاصت عيناه بين الجبهة ونتوء وجنتيه.. مستديرتان، صغيرتان، زرقاوان وغيتان: غباء سكير، غباء فكرة محدودة.

قال عندما أنهى فكرته:

- «يجب أن أتحدث إليك».

تبعه «جوانيو» نحو ورشة المصايح.

في هذه البناية التي لا تمثل لكل الناس سوى المحطة. احتفظ رجل الفريق بالنسبة له بركن الوقود، بين قطع القماش المشحمة، والمصايح التي ترشح. يمكنه أن ينفخ بهدوء ويترك نفسه لوساوسه، فإنه كل يوم - قبل أول قطار - يأخذ ساعي البريد كي يلتهم معه قطعة كعك. فزوجته تعتني به. وسلته دائما تكفي شخصين، يستغل «جوانيو» هذا الأمر منذ عام. ففي كل صباح يقتنص إفطاره.

فوق الخشب القذر من الرشح، وضع «فلامار» الخبز واللبن وعلبة السردين التي فتحها بضربة واحدة. جلس الرجلان أمام مقدمة الباب وقد بدأ جرس يلعلع قرعًا. علق «جوانيو»:

- «لقد ترك ميزو».

بحركة مألوفة طالما مارسها، اقتنصا شريحة الخبز باليد اليسرى كلٌّ بدوره.. «فلامار» أولاً يتبعه «جوانيو» غمسا بطرف نصل السكين الجسم المليء بالزيت الذي غمسه في خبزهما ثم قضمه قضمه كبيرة دساها تماما في الفم، وقبل أن يبدأ في مضغها، جفّف كل منهما بظهر يده، طرف شاربه.

توقف رجل الفريق عن الطعام. وانحنى قائلاً:

- «إنها عنيدة، تلك الشريرة، في ترتيب الصومعة».

فكر «جوانيو» وهو يرفع السكين في الهواء لحظة، وسأل:

- «لماذا تفعل ذلك؟».

- «تقول إنها غرفة للإيجار».

أطبق «فلامار» يده على صدره وكأنه يطبق يديه، ويقرقعهما. ثم

دامت لحظة صمت:

- «أما أنا.. فأقول لا».

تراجع «جوانيو» بحذر قائلاً:

- «هل يجب أن تدفع أجرة آنذاك؟».

- «ليست تلك هي المسألة، فالمرأة أجرت حساباتها، إنها تعرف

كل هذا أفضل منك ومني، فهي تقول إن كل النقود المدفوعة ستعود

إليّ، ثلاثمائة على الأقل، ثلاثمائة وخمسون من نصيبي. ولك أن

تحكم».

وأعطى للساعي الوقت كي يقدر التضحية. ويكرر، متمماً بين

أسنانه:

- «خسارة عليّ النقود. أنا أقول لا!».

هتف «جوانيو»:

«آيه..».

استدارا للحظة، كل ناحية الآخر، وراح كل منهما يتصفح وجه زميله.. مما قد يعكس أنهما يتبادلان الكراهية. ويبحثان فقط عن حل مشكلة. وبالمزيد من الدهاء كان على «فلامار» أن يتخلى عن التخمين بأن «جوانيو» وقع على رأسه. فقناعه المصنوع من جلد الحيوانات لم يخنه قط. فالعينان في محجريهما، في ظل الأهداب وفي منحدر الرموش. أما بالنسبة لتعبير الفم فقد كان مختفياً أسفل شاربه العسكري. وبكل بطء، مثل آلة معقدة، سلمت كل التروس للحركة. وبدأ في المضغ، أما «فلامار» فعلى العكس فكل هذا أقلقته بعمق. لقد أصبح الأكل بالنسبة له شيئاً مختلفاً.

كان «فلامار» صف ضابط سابق في سلاح المشاة، أما ابنة عسكري الحراسة التي تزوجها فقد حصلت له على وظيفة في السكة الحديد. إنها تدير الآن محلاً، على مسافة أربعة كيلومترات من المحطة، محلاً معزولاً يقع في تقاطع ثلاث طرق.

تتوقف عندها السيارات. والدراجات دائماً نصف واقفة. ويقال إنه بداخله، متسع للجميع. هذه المرأة هي الوحيدة التي يمكنها أن تخدع زوجها طيلة النهار. و«فلامار» يعرف ذلك جيداً. تختمره الشكوك. لكنه حبيس الوقت. فهو يكاد ينفق من الغضب في ورشة المصاييح. أما المرأة فهي تعرف من ناحيتها كيف تستحوذ عليه. فالمحل يجلب الكثير، أكثر مما يجلب «فلامار»، ومهما قال، فهو لم يفكر جدياً أن يتخلى عن التجارة. كي يمكنه - على الأقل -

أن يرقب المراسلات. تكلم في العام الماضي إلى ساعي البريد، وهذا يكلفه نصف فطوره. وفي المقابل، فإن «جوانيو» جعله يقرأ بحذر شديد، من هنا وهناك، بطاقة بريدية غير معيبة. صاح «فلامار» فجأة:

- «العابرون. حسنًا. ولكن إذا تركت شخصًا في الورشة ليعتني بأمورها فسوف أفلس!».

أصبح عنقه أرجوانيًا، واستدارت نظرتة، واقتحمه الجيران وانفلت منه نقيقٌ غير منتظر منه.

- «سوف ينتهي الأمر إلى أن يأخذ مني امرأتي!».

ضحك «جوانيو» ساخرًا. فهو على خطأ، فرغم بصره الحاد، وسمعه القوي فإنه لم يفهم أن شفتي هرقل تجفان، إنه شعور أشد من الغضب.. وهذا النقيق ليس سوى نحيب مؤثر.

في أعلى الباب توقف القرع تمامًا. واقترب القطار.

قام «فلامار» ومسح سكينه برغيفه وطواه:

- «حدثك عن هذا يا «جوانيو» قبل دورتك، حتى يمكنك - وأنت تمر - أن تقول كلمتك للمرأة هناك».

قال «جوانيو»:

- «هذا يمكن أن يحدث».

ضحك في الخفاء فقد انتابته الرغبة هذا الصباح أن يتجه إلى
المحل حيث لديه أمر خاص مع السيدة «فلامار».

انفتح باب زجاجي، وظهر ناظر المحطة بزيه المليء بالأزرار،
على الرصيف، قال المحصل:

- «تحياتي، أيها الرئيس!».

رفع العجوز إصبعيه بشكل آلي وقال:

- «صباح الخير يا «جوانيو»».

إنه ودود لا ينقصه التألف، رئيس حزين، محني الظهر، يضع يده
خلف ظهره، وبوجهه الكئيب توجه كالعادة نحو مقدمة القطار.

وفي عربة «البريد» مد موظف بأكاماه الطويلة، بحقيبة ثقيلة من
النافذة.

ومده «جوانيو» بحقيبته:

- «الوداع يا «برجون»! المصارييف عليك!».

كان الرجل العجوز، الأشبه بشخص كسيح، قد استند إلى الباب

وراح يفرغ غليونه في كفه، وبصق بصاقاً أسود. ولم يرد.

هناك، كانت السلال ممتلئة، أطلق «فلامار» صفارته، فصفرت
العربة، وبينما القطار يتحرك، صرخ رجل، وسحب «فلامار»
القضيب بجمود، وسقط قفص دجاجات نافقة، نصف ميتة، تصرخ
للمرة الأخيرة وهي تصطدم بالأرض.

وراح «جوانيو» يركب دراجته.

استدار ساعي البريد إلى أوراقه، و«فلامار» إلى غرفة
المصايح.

وعلى الرصيف الخاوي، تكدست الدواجن الميتة في القفص
كي تنفق تماماً.

مكتب البريد

3

دقت الساعة السادسة والنصف تقريبا في بيت العمدة. حين كانت القرية تحمحم. إنه أمر قديم مألوف أشد قوة من الكسل، وكأنه يجر الناس بلا رحمة من نومهم ليوزعهم من جديد على حظائرهم المتموجة.

في مطبخها الواقع خلف مكتب البريد، تحركت «لاميلي»، التي اغتسلت، وهي تقضم قطعة من الخبز المدهون بشحم الخنزير. ترى ما الذي أكسبها هذا المظهر الأنيق؟ أسنانها السليمة، أم شعرها المجعد أم طلعتها البهية أم تصرفها؟ إنها خفيفة، بشكل غريب، بالنسبة لامرأة قصيرة القدمين، وبدينة.

ذهب «جوانيو» يعمل في حديقته، فتوزع الخطابات لا يبدأ سوى في الساعة الثامنة. استغلت «لاميلي» الفرصة كي تصعد إلى المندررة لتنظيم السرير المتدرج. إنه أمر غير متفق عليه. لكنها تعرف جيدا أنه ليس سوى قزم في السادسة عشرة من العمر. ففي كل صباح. لا يفوت «لاميلي» أن تصعد لتنهز الملاءات حيث كان ينام «جوزيف». وتعيدها إلى الفراش الدافئ والغائر.

إنها تمتلك، على الأقل، شعورًا قديمًا بالعبودية، لوجود ساعي بريد في حياتها، هذا ليس مستحيلًا بالنسبة لامرأة. إذا كانت هذه المرأة تدير المكتب. فقد وجه «جوانيو» «لاميلي» لهذا. أما الشيء الأكثر صعوبة فهو أن يجعلها تتخلى عن الأطفال. فأى امرأة يمكن أن تحمل مثل كل هؤلاء الإناث، ومع ذلك، فمن السهل أن نفهم أن الأمومة ليست متناسبة مع خدمات البريد العادية، وكم بكت «لاميلي» هناك طيلة الليالي. وكان عليه أن يحتمل أن تربي حيواناتها الصغيرة، ف«جوانيو» من ناحيته يبيعها، وهذا أمر وارد.

أما بالنسبة للباقي، فإنها سارت في الدرب، تعرف كيف تستقبل أو ترسل برقية، وتختبر التعريفات البريدية وتمارس أنواع أعمال البطاقات كافة.

ورغم القضبان، وزجاجه اللامع، فإن المكتب لم يكن سوى سجن.. أسفل الجدران توجد بعض القذارة، ولكن أعلاها مزدانة بالتعليمات، والأفيشات متناثرة الرائحة.. رائحة زاعقة.. إنها روائح الأماكن العامة في الحقيقة، يجيء إلى المكتب كثيرون مما لا يدع مجالاً للسأم أبدًا.

تبتعد الكنيسة بشكل طبيعي عن بيت العمدة، فالساعة أعلنت السابعة وعشر دقائق عندما قررت السيدة «فيرن» أن تفرغ الأجراس.

السيدة «فيرن» هي أخت القس، وتمسك مفتاح الكنيسة . وهي في الليل تخفيه تحت وسادتها، وفي الصباح تفتح الباب الواطئ للجناح الكنسي وهي أول من تدخل، تحت القبة. إنها لحظة لا تقارن من الكبرياء، يحفظها الله لها دون أن يشاركها فيها أحد، تتحدث إليه وكأنها خلية. فهي وحدها لديها امتياز تحطيم الصمت بكل قرع لحذاء فوق الأرض الصماء. والمعلق على حبال الأجراس. والسائد فوق المدينة التي لا تزال ناعمة. فأخوها «لأنجولس» لا يلحق بها إلا متأخرًا. عندما تعلن لحظة القداس، بينما يفتح نهاره بالأدعية وهو يعد المذبح، فيتتابع ظلان، ينزلقان بين الأعمدة ثم ينحيان خلف الأنسة «فيرن»، والأنستين «ماسو» و«سلسنتين».

يحضر الثلاثي النسائي المقدس بصفة يومية إلى المكتب، ومثل السيد القس الذي يأتي إليه أطفال جوقة طيلة الأسبوع، فإنهن لا يشعرن ببهجة في ترديد القداس، فلكل منهن دورها كل يوم.

وإذا تذكُرُ الله واحدة منهن، فإن دورة الحياة تعود دومًا، وتروح كل منهن تتهد كأنها مذنبه عندما يتبدى.

ما إن بدأ القداس، حتى راح «جوانيو» يرتب أدواته ويعود إلى مكتبه.

يفرغ حقيبتيه فوق المائدة الكبيرة السوداء ويضبط نظارته. إنه يحب ذلك. ويمارس الفرز، فكل الناس هنا، أمامه، مع لحظاتهم السرية يشعر «جوانيو» بمتعة جديدة. ويأخذ المظاريف الواحد تلو الآخر. ويختبرها كما يسمح وقته. ثم يروح يختم طوابعها المبللة، ويرتبها حسب تاريخ وصولها. ويميزها. وبالنسبة لأغلبها، هو يعرف تقريبا مكان توزيعها، ففي خلال اثني عشر عاما، وبنظرة عين، أصبح يلاحظ ويعيد ويتذكر ويخمن.

لكن من وقت لآخر، يتوقف ويمسك خطابا بأطراف أصابعه. ويعيده. ويزنه بين يديه، وبنظرة شفافة يحدق فيه، فإذا أحس أنه يطوي سراً، فإنه لا يتردد. فهو يعرف جيداً أنه سيقول كلمته الأخيرة. وبدلاً من أن يعيده إلى الكومة فإنه يزلقه بكل حيوية في جيب سترته. ويصفي حسابه، رأساً برأس، وفيما بعد لا تعد هناك رسائل تنتهي بالدخول في صندوق الاعترافات.

السيد إنبرج، المؤسس

4

في الساعة الثامنة، يقرع «جوانيو» الخرج بحمالة،
والكاب على الوسادة، وكلبائه في المكان يعبران
الميدان، وفناء المدرسة، يدخل الفصل الخاوي،
وينادي:

- «السيد «إنبرج»».

في الحال يجيء المدرس ليتسلم بريده، وأيضاً بريد العمدة، لم
يشأ أن يدخل «جوانيو» المطبخ، حيث تجتمع الأسرة على الفطور.
لم يحدث أن قدم «إنبرج» سيجارة لساعي البريد، ولا عظمة
للكلبين، ولذا فـ«جوانيو» لا يحبه. هو لم يقل شيئاً ضده، ولا ضد
أفكاره. لكن هذه بمنزلة بولة باردة من الشرق.

رحل «جوانيو»، فعاد المدرس إلى المطبخ، لفافات تتجفف
فوق الفرن. تنطلق من الجانب الأيمن رائحة لبن رائب، والغسيل
والحوض. تكدس الأبناء الثلاثة في طرف المائدة وهم يزقزقون
كأنهم قد فقسوا التوهم. راحت السيدة «إنبرج»، بقميصها الفضفاض،
تضحك وتزمر على التوالي وتسكب قليلاً من شراب التيبوكا في

كل قدح أمامها. سيدة ذات بشرة داكنة مثل جسدها نفسه وشعرها الدهنيين. فالإنجاب المتتالي شوهاها. وهذا ما يفسر طبيعة ومظهر أطفالها الذين تأثروا بطبيعتها السوقية.

جلس السيد «إنبرج» في مكانه صامتا، ثم طوى صحيفته، ووضعها بين قدح أخته، وقدحه.

يتشابه السيد «إنبرج» مع أخته. فكل منهما نحيف وشاحب وأشقر، وله النظرة الصافية نفسها، وضعف البصر. والفك المدبب نفسه، وطريقة الكلام نفسها دون أن يزم أسنانه بما فيه الكفاية. والابتسامة الساخرة نفسها والضحكة نفسها الممزوجة بالازدراء والقم المغلق، والأنفاس التي تنطلق من الأنف.

من الحظ أن المدرّسة «مويرو» هي أخت السيد «إنبرج». والحظ أنها غير متزوجة، فهي تمارس الطبخ كوظيفة. ومن الحظ أيضاً أنها تخضع لأخيها بالجزء الأغلب من أسلوبها، تستخدم مطبخها للغسيل. وفي المنذرة ينام أبناء أخيها، وفيما عدا المدرس، فإن زوجته وأبناءه الثلاثة يعانون العيش في الشقق الخاصة (غرفة وحمام ومطبخ) المرخصة من الدولة.

أمسك «إنبرج» جريدة الحزب، ومعه أخته، لقد وحّدهما الأمل نفسه والسخط نفسه، والمرارة نفسها. راحا يقرآن أخبار العالم

الذي يبدو لهما مؤسسة أكثر ظلما وجرما. من وقت لآخر - ودون أية إشارة - يهزان معًا كتفيهما الحادتين ويسمعان الضحكة نفسها من منخريهما.

صاحت الطفلة الكبرى:

- «ماما!».

استحوذ على السيدة «إنبرج» وليدها الأخير بكل حيوية، ففتحت الباب الذي يطل على الحارة. وقرصت على العتبة، ورفعت ذراعيها نحو الطفل أعلى السلم، كان الطفل يتقلب، ويحرك ساقيه في الشمس. تنهدت وهي تنهض «لم يعد لدي ملابس جاف ألبسه. أخيرًا. ربما يتغير كل هذا إذا تم انتخاب السيد أرنالدون».

لم يكن «إنبرج» يجهل الأمور التي تعرضها زوجته بين غيار الأبناء وانتخاب العمدة كمستشار عام. فهي تأمل أن يحصل زوجها على ترقية، ويترك هذه الوظيفة قليلة الراتب، تلح عليه عشرين مرة كل يوم أن يرفض كل هذا الأمر، لكن المدرس يعرف جيدًا أنه غير محظوظ في أن يجد شريكًا، وأن أخته يمكنها أن تكون أنسب منه. فوجود الأنسة «إنبرج» يمسك بشغاف قلبه أكثر مما يتصور. خبرتهما ومشاعرهما وطبيعتهما المشتركة، تشكل قليلاً من خيبة الأمل التي عاقبه بها زواجهما بشكل عام، ووظيفته، وتطوره البطيء في الحياة الاجتماعية.

بكل دقة، في الثامنة والنصف، في كل مدرسة، يمسح الأخوان «إنبرج» السبورة السوداء، وتبدأ الحصة. لكن حتى الساعة التاسعة، تسود الضجة المألوفة كأنه السوق ويتحرك التلاميذ ذهابًا ومجيئًا. في البداية فإن أي تأخير يعاقب عليه الآباء. ولا يتردد العمدة في رفض احتجاجاتهم رغم أنه عند توزيع كل جائزة، اعتاد أن يحيي بالتصفيق كل هذه الأسر كواجب رسمي نحو أبناء الشعب، وإن الديمقراطية متاحة للجميع. عليه أن يخضع. ويستمر المدرس والمدرسة في توزيع الدرجات الضعيفة، حسب المبدأ ودون أية مجاملة. فالمدرس والمدرسة هما الوحيدان اللذان يعلقان بعض الأهمية لواقعة الاستماع في الفصل لمدة نصف ساعة، والوحيدان اللذان يأخذان أمور التعليم الديني والإجباري بجدية.

«بوس» صاحب المقهى

5

يشكل مقهى «لوكافيه تاباك» مع مكتب البريد ودار العمدة القطب الثالث الرئيسي الجذاب للمكان. فهناك دائما بريد لـ «بوس»، صاحب المقهى، وليست هذه سوى أمور يومية مألوفة، كما يبدو للعيان.

دفع «جوانيو» الباب، ودخل كلباه قبله.

- «هنا، بيك! ميرابول».

غاص الكلبان حتى منتصف أجسامهما في علبة النشوق.

قالت السيدة «بوس» بسعادة:

- «دعهما إذن».

لم يلح «جوانيو»، فقد فهم منذ زمن طويل دوره كساعي بريد، فإن تربية كلاب من هذه الفصيلة، توجب عليه أن يحب توزيع الخطابات، فهو يأخذ في الاعتبار، وبقليل من الخشية والشعور، أن كلبيه يعرفان عادات كل بيت، والمكان المضبوط لكل قمامات البلدة. فالدورة هي اختبار لهما ووجبتهما اليومية وبيع جرويه هو استفادة في مكانها.

يعتبر «بوس»، النادل ذا الحلقوم الضخم، والعجبة المنخفضة، والعينين البطراكييتين، والذقن المخيفة، أكثر أنصاره في المجلس البلدي، إنه شخص من السهل قيادته، ولكن بشكل انتقامي.

خلف حانته، التي تطل على ربوة، يقوم بتحضير سوائله بشكل غامض، ويتبرع بتقديم كأسين من الروم: إنها الضريبة اليومية، ف«جوانيو» شخص له سطوته.

كانت السيدة «بوس» تقوم بغسيل البلاط وقد عقدت ممسحتها في دلوها، واقتربت من القمطر.

ترتدي مريلة سمراء، وهي ذات عينين حادتين، لهما حركات متتابعة، وأنف يتأجج كأنه العرف، أو كدجاجة تنقر في الأرض بمنقارها.

- «هل حقا يا سيد «جوانيو»، ما يقولونه عن الأم داني؟».

سأل «جوانيو» مراوغا:

- «ماذا؟».

راوغت:

- «هذه العجوز، كم يا ترى عمرها؟ إنها تقريبا في السادسة والسبعين، أو السابعة والسبعين..؟».

اختفى «جوانيو» وراء أهدابه المغلقة.. ساكنا، ولكنه على استعداد لأن يقفز فوق أي فريسة.

تمتت السيدة «بوس»:

«مع ناسورها ذي الرائحة التنتة. نفهم أن المستقبل يجعله بلا مأوى! أليس كذلك يا «إميل»؟».

انتظر «بوس» دوره كي يقول كلمته. فقلّب رأسه قليلا وأفرغ شرابه في جوفه.

دامت لحظة صمت.

فهمت السيدة «بوس» أنها يجب أن ترمي بأوراقها.

- «يقال إنها فكرت في أن تبيع بيتها القديم، وأن تعطي النقود إلى أسرة «كيرول» كي تسكن عندهم، هل هذا صحيح يا سيد «جوانيو»؟».

وافقها ساعي البريد:

- «حكوالي أشياء من هذا القبيل».

قال «بوس» بصوت مبحوح:

- «بالنسبة لي هي شقيقة القس الذي دس كل هذا!».

تمتت السيدة «بوس» بكل رقة:

- «حسنًا.. إنها على غير حق. هذه العجوز المسكينة داني. إذا

كان لديها فكرة أن تموت في هدوء. وأن يتم الاعتناء بها حتى آخر

لحظة مثلما يحدث للناس الطيبين. وليس هذا لدى كنيسة منفرة،
وكسول مثل «كيرول». لتكن مثلما تكون!». .

مددت رقبتها، ونقرت بمنقارها، وأضافت:

- «هذا كل ما عندي».

رد «جوانيو» بلهجة كأنه يقول «مفهوم»:

- «مممكن!».

وتبادل الرجل وزوجته نظرة عابرة.

تنهدت السيدة «بوس» وهي تعود إلى عملها أخيرًا:

- «فلا يمكن أن تجعل الناس سعداء رغماً عنهم.. أليس كذلك
يا أميل؟».

أنهى «جوانيو» شرابه، وضبط خرجه، وأطلق صفيراً لكليبه،
لكنه لم يرفع كوعه عن القمطر.

هنا نظر إليه «بوس»:

- «اسمع يا «جوانيو». أنت تعرفني. لا أعرف بالضبط ما سوف
تبيعه لها، فيللا الأم داني. لكن في الحقيقة نحن هنا معاً، قد غيرنا
رأي العجوز: فلها عشرة بالمئة، وسوف يتم إنجاز العمل».

قال «جوانيو» بكبرياء:

- «إيه.. بين أناس من طرازنا، ليس هناك فرق بيننا. يا «أميل».
إن استطعت أن أؤدي لك خدمة. فسيكون ذلك من كل قلبي».
ثم أغمض عينيه الماكرتين أكثر. وأضاف بصوت رخيم:
- «أما بالنسبة للباقي، بين الأصدقاء، فإن الأمور تتم تسويتها
دومًا».

تصافح الرجلان كأنهما يوقعان عقدًا فيما بينهما.

عائلة ميرلاثيني، خبازون - مدام كسافيه، حلوانية

6

يواجه المخبز محل البقالة. وعليه فإن مقهى «كافيه تاباك» يصل إلى مستوى المخبز قبل مستوى البقالة، لذا فإن «جوانيو» يدخل بالغريزة لدى عودته عند «ميرلاثيني» قبل أن يمر

على السيدة «كسافيه». في هذه الليلة فإن «ميرلاثيني» الأصغر هو الذي سوّى الخبز. أما الأخ الأكبر «ميرلاثيني» فإنه يبيعه. أو بالأحرى هو الذي يتابع بيعه بواسطة خادمتها «إرنستين»، وهي قذرة صغيرة، لا تمشط شعرها، ولم تبلغ السابعة عشرة من عمرها بعد.

يمكن تمييز أكبر التوأمن من خلال التواء الذي على حاجبه الأيسر، وغير ذلك فإنهما متماثلان تمامًا: الأنف المقوس، البشرة الشاحبة، ولحية صغيرة والزرغب الرمادي نفسه، وغبار الدقيق، الذي يصنع إطارًا على تقوية الملابس.

التجارة لا تسير على ما يرام. وليست هناك وسيلة للنضال ضد نقل البضائع للمدينة الكبيرة «فيل جراند». حيث تتوقف الشاحنات الصغيرة، المليئة بالخبز الساخن صباحًا ومساءً في ميدان الكنيسة.

يعطي الكاتب الوزن المناسب. ويقوم ببعض البيع بالأجل، ولا يتعامل مع النساء. شيء آخر يفعله الأخوان «ميرلايني» بوجهيهما الشاحبين وبضاعتهما ناجزة الصفقات، لإغراء الزبونات. والخبز البائت الذي تنساب رائحته برقة، بعد أن يتم بلله، وإمساكه من الفرن فإنه فقط أقرب لذوق الجيران الذين يأتون إلى المخبز. ولأن «جوانيو» يعرف أن كل هذا ينتهي بشكل سيئ فإنه يدس أنفه، أخيراً، في رسالة معلقة وجدها في صندوقه، رسالة تهديد، مجهولة، موجهة إلى مدير نقل البضائع، أما الأخوان «ميرلايني»، كما يقال، فإنهما قادران على كل شيء. ففي القرية، كل شخص يشك فيهما، دون أن يحدد السبب؛ لذا فإن أية فتاة في البلد لا تود العمل لديهما، بينما مكتب التشغيل في مدينة «فيل جراند» يأتي لهما بعمال صغار من طراز «أرنستين». يحتجزونهما في الفرن ستة أشهر، ويوجهان رغباتهم في صمت، ثم إنهما يتوجهان نحو المدينة من أجل مبادلتهم بأشخاص أكثر طزاجة.

راحت السيدة «كسافيه» البقالة التي تسكن وراء محلها. تمسح بعينيها وقد وضعت يديها على فوطتها. إنها لا تنزعج عندما ترى ساعي البريد يدخل. فهي لا تقوم إلا من أجل استقبال زبائنها. حتى عندما يحضر لها «جوانيو» جريدتها فإنها بذلك تكون زبونتته.

السيدة «كسافيه» بها مس من الجنون، وهذا شيء ملحوظ. حتى في فترة الراحة، فإن وجهها تحت كتلة من الخصلات الرمادية،

يبدو ساكنًا ومرتبكًا. كما أنها تمشي أثناء النوم، وتحبسها ابنتها ليلاً حتى لا تخرج وترعب الجيران. أكثر من عرابة، دون أن تزعم أن السيدة «كسافييه» امرأة ساحرة مثل ساحرات الزمن الغابر، وتفكر أنه بهاتين العينين يجب أن تلقى أمورًا شريرة، ولا امرأة بدينة تضع قدميها في محل البقالة.

طبيعة السيدة «كسافييه» تشبه طبيعة القطط، فهي من ناحية أخرى تعلق وتشجب - مثلها - وتغمس في حلم ساكن ومتربص مثلها، وتبدو كأنها محبوسة في عالم معزول عن البشر. وعندما تمر من الباب - حتى باب غرفتها - التي تدخلها عشرين مرة يوميًا - فإنها تصاب غريزيًا بالتردد، وتلقي نظرة تشكك يمينًا ويسارًا. سواء في محلها أو مطبخها، تظل حريصة، وتسند ظهرها إلى الحائط، نحو المكان الذي تقدم منه. وعندما تبدأ في الأكل فإن وجهها يحمر، وكأنها قد طهت نفسها. تتشمم أطباقها وتتذوق قطعها بأطراف أسنانها، وكأنها خائفة من التسمم.

لا تبدو الحياة ممتعة مع امرأة متوحشة غريبة، وهكذا فإن ابنتها الجميلة رغم أنها قبل أن تكون مؤهلة للزواج، فإنها تفكر في الزوج باعتباره سجانًا ومن عدم الجدوى أن تنتظر. «اسبرانس» بالغة الجمال، وهي مسكينة. ومن المعروف أنها عملت في إحدى صحف الموضرة. وكل الغلمان يحومون حولها، ولكن لا أحد سيتزوجها.

مدام داني، صاحبة دخل

7
رغم أنه ليس له سوى نافذتين.. بيت السيدة «داني»
قد تم تميمه ك (فيلا) عندما لم يكن هذا سوى
تصميم للبناء فوق ورق مقوى. وأن السيدة «داني»،
رغم أنها لا تعمل

الآن، كانت تنز عرقا أمام فرن موثق عقود الضاحية. لكن المعنى
الفخري لكلمة «فيلا» لم يكن قد شاع في البلد إلا فيما بعد: بعد
أن تم بناء أسطح البيوت الزجاجية من طراز ماركيزي، فوق باب
أصفر، مصنوع من خشب البلوط الفاتح، المرصع بالفراء الفضي
أشبه بتابوت ثري، خاصة بعد أن أقام «جوانيو» بعرض التابوت في
القرية، وقد تصدره بعنوان واضح مكتوب عليه: مدام «داني»، فيلا
«مقبض السلة».

كانت السيدة «داني» تنام فوق سريرها بقميص نوم وتنورة، فقد
ابتليت منذ عشر سنوات بناصور غير ظاهر، تعانیه رغماً عنها ما أن
تخطو عتبة الفيلا، لذا غرفة السيدة «داني» قدرة، لكنها أنيقة: هناك
دولاب بمرآة، وقطعة سجاد مربعة أمام مقعد وثير، مذيّل برأس
لجام مثقب.

- «كم أزعجك يا سيده «داني» برغم عدم أهمية الأمر، فالأمر بسيط.. لكن الخدمة هي الخدمة».

(فلدى «جوانيو» دائماً في خروجه خدمات بلا مقابل مما يسمح له أن يدخل إلى الناس مهما كانوا).

- «آه يا سيد «جوانيو»، أشفق عليّ: فإن الدوالي تؤلم سيقاني، أيها الطيبون! لم تعد لدي أدنى قوة لأمارس أعمال المطبخ.. لقد اشتريت رأس حمل صغير وجميل، مطعم بالخل، إنه رائع، بكل سخونته.. حسناً، فإن الأشعار ملقاة قبلي.. لو قلت لك إنني بالأمس، من أجل طعام المساء، التهمت فقط قطعتي بسكويت بللتها بالنيبذ، تملكنتي قوة كاذبة حتى أطرافي!.. آه! أيها الطيبون! مهما كان لدينا من مسكن طيب، فإن الأمر يتغير عندما تتحطم سيقاننا يا سيد «جوانيو!»».

- «لم أقل إنك لا تقيمين في منزل «جين»، هذا كذب يا سيده «داني»، واعتمادي على ساعي البريد وأنت تجلسين بعيداً جداً عن السرير. ورغم ذلك، ففي سنك، وبكل مرضك، فإنني أحب أن أراك منشغلة بأعمالك. محاطة بأشخاص يمكنهم تقديم المساعدة لك. ليس فقط في فيلتك الجميلة، المعزولة عن الناس كما أنت الآن!».

ألقت العجوز على ساعي البريد نظرة ممزوجة بالشك. كان جسدها الذابل قد كشف عن تجاعيد أسفل الحاجبين، وتحت شعرة رمادية فوق ذقنها، بدا الشعر الأبيض تحت إشارب من القطن الأبيض له عقد كبيرة، كاشفة عن فروة رأسها الوردية مثل جلد مقشنة.

- «لماذا تقول لي ذلك، يا سيد «جوانيو»؟ هل هذا هو رأيك في آل «كيروول»؟».

- «آل كيروول؟».

بدا أشبه برجل ساذج، يحس بالأسف عما بدر منه من كلام، لكنه - وهو يأخذ هذا في الحسبان - رجل قادر على إسداء النصيحة.

- «آه، يا سيد «جوانيو» أنا أنتمي لمنزلي، هذا غير معقول، وهذا ما يتعبني. لن أسكن مطلقًا في منازل الآخرين!».

- «هذه هي المسألة.. يا مدام «داني» في بيت «كيروول»، هل تجددين الثرثرة؟ لنقل عند آل «بوس»».

جحظت العجوز بعينها:

- «عند آل بوس؟».

- «نعم! وكى أقول الحقيقة.. فالأمر يخيفني، من أجلك.. لكن عند «آل كيروول»، فإن منزلهم الصغير يبدو مثاليًا، ليس هناك

ما هو أفضل بالنسبة لك من هذا السكن ففي أطراف الحديقة، هناك رطوبة أقل.. نعم.. لكن الناسور ليست لدي فكرة أنه يؤلم كثيرًا في الرطوبة. ثم ليس عليك سوى إشعال بعض النيران. في بداية كل مرة..».

كررت العجوز التي اهتزت قدمها وكأنها لن تستطيع إعادتها إلى مكانها ثانية:

- عند «آل بوس»؟.

- «حدثيني عن «آل بوس»، يا سيدة «داني» ما دمت تعرفين بيت آل «كيروول». فهو هادئ وساكن، ألا ترين أنه أفضل من عشرات البيوت التي تحوطه؟! يمكنك أن تقبعي في مكانك بالداخل لأيام وأسابيع دون أن تسمعي نهيق حمار، ولا أن تري مسيحيًا يمر ثم، في مثل سنك يجب أن تهتمي بالطعام، و«آل كيروول» جادون ولديهم نظر. فهم لا يتناولون سوى الحساء وقليل من الجبن، إذن فليست هناك أية مخاطر من إعداد كل الأطباق لك. كي تتابعي نظامك الغذائي.

- «وعند «آل بوس»؟».

- «أنت تكلميني - ليس دومًا - عن آل «بوس»؟ يا مدام «داني»! الأفضل هو عكس ما تودين. أولاً، ستسكنين في مكان مبهج أكثر من اللازم. امرأة في مثل سنك يمكنها النظر طيلة النهار

عبر النافذة، وترى كيف يتحرك العالم، ثم في الحانة، هناك دائماً الغادون والرائحون، والثرثرة والأغاني، والبيانو الآلي! ألا يجب علينا أن نتسلى عندما نصير عجائز؟ لكن المصيبة والتي لم أقل لك عنها هي الغذاء.

- «لماذا يا سيد «جوانيو»؟».

- «لأنك تعرفين الطهي يا سيدة «داني»، وأنت صاحبة فم رقيق، كما يقال، ومن الصعب أن تتماسكي عندما يكون الطعام لذيذاً، وأن يدفعك الناس للأكل، وكأن وجبة حفلات الزفاف تقدم كل يوم. مسألة أن نأكل أفضل، فإن «آل بوس» لا يعبؤون بها.

- «إذا كنت تعرف أن السيدة «بوس» تلقي النظر على أطعمتي - خاصة اليخني - فإن الآخرين يشعرون بالسعادة لأنهم يتناولونه في يوم الأحد!».

قام «جوانيو»:

- «لقد أخبرتك، فكري في «آل بوس»، يا سيدة «داني» قررت أن أقضي حياتي هناك، كي أعيدك إلى هناك.. هيا إلى الصحة، وإلى المتعة. كنت أحب أن تعرفي هذا عن آل «كيروول» الطيبين».

- «خذ يا سيد «جوانيو»، دون أية توصية، خذ القنينة الزرقاء من فوق المائدة وأمامك دقيقة لتناول كأس صغيرة معاً».

- «حتى لا أجعلك تواجهين الأمر، يا سيدة «داني»، يجب أن تستفيدي من بقائك، عندما ستكونين عند آل «كيروول»، فسوف تكونين في مأمن من هذه الإغراءات السيئة. إنه نوع من النكات المسجلة في الرابطة. مثلما يقول القس».

- «الرابطة؟».

- «نعم يا سيدتي الطيبة، كم نلت الشرف! فإن السيدة «كيروول» لها مبادئها، فإنها على مدى السنين تمنح حميرها إلى رابطة مكافحة الإدمان!».

وتبذل العجوز جهدًا كي تجلس على طرف الحاشية، وتتمتم.

- «يا لهم من طيبين! رابطة مكافحة الإدمان؟».

السيد فرديناند، حلاق - الخصماء المتحمسون - اعتراف سلسنتين

انشغل الحلاق «فرديناند» بالنظر إلى حفيده، الشاب «فرانيسيس»، وهو يصب النشارة الطازجة حول مقعد الفتوية الوحيد في محله.

8

صاح ساعي البريد:

- «تحياتي يا «فرديناند». هذه هي صحفك القدرة!».

عضو نشيط في اللجنة، فإن السيد «فرديناند» لا يقدم لزيارته سوى أوراقٍ فكرية.

رجل قصير، مكروش، ذو شارب رمادي، وهو ينشغل منذ الصباح بالنيران، ويخفي صلعته أسفل شعر مستعار، وذلك من أجل أن يدبر لنفسه ثمن دهان الشعر.

الابن والحفيد وصغار الأبناء من نفس الصلب، فإن السيد «فرديناند» لا يشعر بالعزاء سوف يمنح يومه إلى أصهب الشعر، وصار شعره أجعد مثل شخص أصلع وعليه أن يرمي بعرض الحائط كل تقاليد العائلة.

كرر في يأس:

- «لديك مقص حزين».

لأن السيد «فرديناند» يعرف أن مولد حلاق يحتاج أولاً إلى أن يعرف قرقات مقصه.. وكأنه بائع البهجة في عيد الفصح. إنه يؤكد على هذا: فالمقصات تطير في الهواء مقرقة في أصابعه مثيرة انتباه الزبائن ومشاعرهم الربيعية.

يحب السيد «فرديناند» فنه، فهو ماهر. إنه يحلق الشعر بشكل مختلف، وهو يمسك المقص بإبهامه. وهذه الطريقة هي الأكثر حداثة والأكثر تكلفة. وليست مطلوبة كثيراً في «موييرو». ثم إن السيد «فرديناند» يغسل إبهامه دوماً تحت الصنابير قبل أن يولجه في مؤخرة المريضة.

مقهى «لو كافي تاباك» كان هو المركز المعروف لليسار، ومقاولي الكليروس، وكانت «بوس» هي الكافتيريا الوحيدة في القرية، أما الناحية الوحيدة التي يختارها اليمين لجلساته فهو حانوت السيد «فرديناند». كان على كل منهم أن يقص شعره يوم السبت، ويشرب يوم الأحد. حيث يتوجه اليمين واليسار إلى مقهى «بوس»، وصالون الحلاق.

كان ليسار دافع آخر في الجس عند الحلاق، إن السيدة «فرديناند» هي المرأة الحكيمة الوحيدة في القرية، اشتهرت بقوة

عضلاتها، فهي تمارس عملها دون توجه من الحزب، وتقص جدائل اليسار مع الكثير من الخفة عما تفعل مع اليمين.

وبعيدا عن أيام السوق، فإن محل الخردوات يبدو خاويًا، ويرتب «جوانيو» نفسه حتى لا يرى مطلقًا آل «كيرول». ويعلن دخوله إلى المحل! وقبل أن تأتي من أعماق المنزل، يكون البريد في مكانه فوق المائدة، ويكون الساعي قد صار بعيدًا.

هم كسالي، مثلما تردد السيدة «بوس»، ولا يغفر لهم أنهم يتحركون بأقل قدر من النشاط مثل بقية سكان القرية. في الطقس اللطيف يتحرك «كيرول» قليلًا في المحل، أو في محل البقالة. وفي الطقس الحار فإنه ينام وتجلس امرأته من الصباح حتى المساء في المطبخ. تغزل المناشف وترتب الممسحات، وتطرز المفارش القديمة والبنطالات، ومن أجل ابتها لوسي، فتاة مشوهة القامة، تضع نظارة على عينيها، تذهب إلى الخياطة، أو تختفي في أركان المنزل حتى تقرأ الكتب التي تستعيرها من المدرسة.

إنهما زوجان منذ ثلاثة أشهر، وقررا مقاطعة الأم داني، مدام «كيرول» لديها عاطفة واضحة: أفكارها محددة. تعد دولاب العجوز. «كيرول» أيضًا عمل حساباته مئة مرة حول بيع الفيلا، وفاوض العجوز وهي تحسب أنها قد تعيش خمس أو ست سنوات وسيؤدي هذا إلى المزيد من الكسب.

إذا كان «جوانيو» لم يدخل قط عند آل «سلسيتين»؛ فذلك بسبب نباح كلبيه الدائم من أجل لعق لبن القطط.

اليوم، الباب مغلق، وعلى «سلسيتين» أن تقوم بأعمال منزلها في ساعة مبكرة. لا.. ف«سلسيتين» لم تستيقظ بعد.

جلست السيدة «سلسيتين» في منزلها تبكي.

فقد كانت هناك مأساة.

ففي «سان جان»، ذهبت «سلسيتين» إلى حقول الشوفان، وهناك أضاعت السلسلة التي تضعها حول رقبتها منذ مناوالتها. ماذا تفعل وسط هذا الحشد، هي التي لا تخرج مطلقاً؟ لعل الشيطان قد نفخ ظهرها في ذلك اليوم! ودون أن تنطق بكلمة، أشعلت شمعتها، وراحت تعترف:

- «يا عزيزي «سان أنطوان»، إذا أعدت إليّ سلسلتي سأمنح الكنيسة تمثالاً..».

وفي اليوم التالي، أتى إليها أحد المزارعين بالسلسلة وقررت أن تشتري للكنيسة تمثالاً بأربعين فرنكاً، وبالأمس عرفت الخبر، فالسيدة «كيرول»، صاحبة محل الخردوات اتفقت مع السيد القس أن يضعها تمثال «سان أنطوان» في الكنيسة.

وراح التمثال يعبر القرية كلها، فوق نقالة، في خزانة من العاج الأبيض.

ووضعتة عائلة «كيروول» في الفناء، تحت السقف العالي، إنه «سان أنطوان» بشموخه - كما يقال - بكل ألوانه.

قضت «سلسيتين» ليلتها في الابهال والصلاة. وهي تتساءل: إنها لم تخبر أحداً قط وأرادت أن تفاجئ القس. والآن، لا يمكن أن يوضع تمثال «سان أنطوان» في الكنيسة؛ لذا راحت تتحجب وهي تحس أنها ملعونة.

فجأة رفعت رأسها، قفزت من فوق السرير. وارتدت تنورتها، وصعدت إلى صومعتها، واندفعت إلى الطريق، وقد زاغت عيناها في الحوار، كانت هناك فتحة منخفضة، وعنبر بعيد، دخلت العنبر والفتحة، حيث ازدحمت باللفائف المصنوعة من القش الناشف. وأشعلت وريقة بواسطة عود ثقاب وظلت هناك للحظة. وهي تدقق في النيران المشتعلة.

كان ذلك عنبر السيد «كيروول».

السيد الخوري - سلستين في بيت الكاهن - الخوري عند الخصماء

يقع بيت الكاهن بين الفناء والحديقة، ولو قرعنا الباب، فإن صوت الجرس يقرع مباشرة فوق الأنسة «فيرن»، أما الجرس الصغير فإنه لا يقرع.

9

الأنسة «فيرن» هي شقيقة القس. كتومة، ولا تعترف بالفشل، كهلة، وعذراء، وهي تتبع مذهب الكنيسة الحورانية، وهي ضد غالبية القرية التي تكرهها، وتتعامل معها بكل فتور. فهي تدير بفعل الأمر الواقع مجموعة من المعارضين النشطين الذين تجمعهم الكنيسة في ظلالها.

حتى في الشتاء، وهو يسلك الحارة فإن «جوانيو» على ثقة بأنه يرى القس في الحديقة يرتدي مسوحه، التي تبدو من أسفل فتحة العباءة:

- «سيد فيرن!».

يهتز القس بكل جسده، ويزرع عصاه أرضاً، ويقترّب بكل هذه الإيماءات الازدرائية التي لم يتخل عنها في السنوات الأخيرة، حتى

في جسمه. يقول «باسكالون» الحفار:

- «ليس هذا قسًا بل قراقوزًا».

يرفع الأب «فيرن» قبعته المصنوعة من القش بكل أدب، ويأخذ بريده. هذا البريد الذي يتأخر دومًا، يومًا عن مواعده. ويلقي «جوانيو» نظرة عامة على المراسلات المغلفة بمظروف «أسود». «أسود» بالطبع، يقبلها ويعتذر بكل ما به من وضوح عن كل ما لديه من شعور بالشفقة.

القس رجل عجوز، داكن البشرة، ذو نظرة حميمة، ونحيف وعصبي بشكل مرضي.

لقد أبحر إلى «موبيرو» منذ خمسة وثلاثين عامًا ومع كل ما يخص باحث شاب في متاعه. ففي السنوات الأولى، أخذ يناضل ضد الأفكار الدينية لهذا البلد الكهل، حيث لا يفكر في أي شخص سوى في نفسه، فقد شرع في خلق روح متعاونة مسيحية بين الناس، فالمؤمنون مدانون لمحاولتهم ولأنشطتهم، أما لجنة الإحسان التي أسسها بشكل نظري، فلم تعمل دومًا. من الخطأ ومن المستحيل أن ندفع ما بنفس هؤلاء العمال بفائدة بسيطة. لقد استمر هذا منذ أجيال عديدة، فالاختبار الحي في الاقتصاد هو خنق الغرائز الإنسانية كافة، إنه الآن سباق مليء بالتحدي والرغبات والحسابات، ورغم الحب

الجارف فإنه أشبه بالقروح. هل هو هكذا دومًا؟ هي مسألة طرحها القس دومًا بمعاناة.

لسنوات عديدة. شعب فرنسا الصغير استطاع أن ينحني دومًا داخل هذه الكنيسة المقامة الآن، ترى ماذا يحبون فيها، هل هو الحب أم الأبحاث، أم الحاجات الروحية البالغة الضمور؟.. أم هي الخشية؟ الخشية من الله، والخشية من رجال الدين؟ والتخوف المألوف من المصير المحتوم؟

يعرف الأب «فيرن» جيدًا أن هذه الأثقال قد دُمرت. من ناحية أخرى، فهو يحاول إعادتها إلى كيان يمكن الاستفادة منه.

شيئًا فشيئًا، فإن الاختلاف العام صار سببًا لشجاعته، سعة صدره أو صمته فاعتمد على نفسه، وقام بوضع نظام من المذهب اللاترابي. وصار ملجأه هو العناية الإلهية، مما أعطاه بهاءً قويًا كالماء للخصوبة، عشر ساعات يوميًا.

يقوم برعاية أرضه، كأنه يحصل على أجر إضافي بلا عمل، إنه يستفيد من الشتلات التي اشتراها له «لوتر» بسعر زهيد، فهذا يسمح للإنسان بمواصلة الحياة. وأيضًا بتوزيع بعض الصدقات.

يعيش بيت الكاهن بلا منازعات، وأيضًا في الكنيسة، كما يحمي - أخيرًا - منازعات الرعية الخورية التي تنتمي إليها أخته. لا يشاهده أحد في الكنيسة سوى في ساعات العمل الرسمية. كل يوم أحد في

القداس الكبير. أكثر إحساسًا بالرضاء. يصعد بكل اعتناء ويتكلم على أحسن ما يكون إلى بعض النساء العجائز اللاتي ظللن على وفائهن للآنسة «فيرن»، ولله.

انفتحت نافذة بيت الكاهن على اتساعها. صاحت الآنسة «فيرن»:

- «تعال، بسرعة».

هرول القس في ملابسه، واضعًا غطاء رأسه، وزرر عباءته بسرعة.

كانت «سلسيتين» تجلس قريبة من المدفأة، منهارة فوق مقعد، وهي تتحب:

- «سيدي القس.. لقد حققت أمنيته قبلها».

شرحت الآنسة «فيرن» المتأهبة لسبرغور القلوب - دومًا - وخففت من التعليق على الوقائع بكل ثقة. قال القس:

- لا تتركي نفسك لهذه الحالة يا طفلي المسكينة. لدينا كل السلطة لأمنحك كل ما تتمنين. سوف تقدمين هدية أخرى للكنيسة: القديسة «جان دارك» مثلًا.. وستكونين مباركة».

عضت «سلسيتين» يديها، وهي تبكي، فقد أثارته فكرة «جان دارك» أكثر:

- «لا يستطيع «سان أنطوان» أن يفهم هذا يا سيدي القس كي يعاقبني. لقد أفقدني كل أعمالي!».»

تماسك القس، لكن عضلات وجهه أكسبته جدية أكثر من ذي قبل، إنه غير قادر على التماسك في مكانه. استدار نصف دورته حول مجموعة تماثيل من القديستين اللتين أمامه. استكملت الأنسة «فيرن» كلامها:

- «إنها غلطتك! لماذا تركت آل «كيرول» يهدون تماثيلهم؟ استدعهم! ورتب كل شيء بنفسك.»

كانت السيدة «كيرول» جالسة في المطبخ، قريبة من ابنتها «لوسي» وقد امتلأت الحجرة بالذباب ورائحة الكرب.

مدت السيدة «كيرول» المقعد وهي تقول:

- «اجلس يا سيدي القس». وتساءلت: ترى هل أرسلته الأم داني؟ ووقعت عينها بالمصادفة تجاه «لوسي» وهي في الحديقة، تجمع أوراقًا للسلطة.

جلس القس ثم قام، وظل واقفًا وهو يسند قدمًا على الأخرى ويطوحها، هازًا كتفيه مثل كلب يخرج من الماء. وحكى سبب مجيئه.

- «أنت امرأة طيبة القلب يا سيدة «كيرول». وأنا أناشد طيبتك،
فالفاتاة المسكينة تعتقد أنها ملعونة. وتحب أن ترى رد فعل
لنواياها...».

احمرَّ وجه السيدة «كيرول»، ونظرت أرضًا، وقد عقدت ذراعيها
فوق وسطها:

- «بالتأكيد لو كنت أعرف، ما فعلت ذلك.. ولكن ما حدث
حدث، يا سيدي القس، فإن القاعدة مقامة، رغم أن اسمينا مدونان
على اللائحة. كراهبتين».

صار صوتها أكثر حدة شيئًا فشيئًا:

- «لقد دفعنا، ونحن نبغي أقل قدر من النفع. أليس كذلك؟».

- «لكن، مادامت قد قدمت طلبًا كي تسترد ما صرفته من
حساب!».

- «جميعًا؟».

- «جميعًا».

ترددت السيدة «كيرول» هذه المرة.

- «هل يجب أن أستدعي الرجل؟».

نزل السيد «كيرول»، الذي كم حلم فوق فراشه وراح يضبط
ملابسه. له رأس صغير ومحدد، وذقن بسيطة كأنها مقامة فوق

عنقه، العنق الذي ينساب فوق كتفيه والجذع يتسع حتى أعماق
بنطاله، حتى إذا جلس فوق الأرض فلا شيء يمكن أن ينسكب منه
أخيرًا، تبادل مع المرأة نظرة سريعة.

- «سيدي القس، أنا إنسان يؤمن بالقضاء والقدر إذا كان سكان
القرية لديهم وعيهم. فقط، إذا كانت هناك أسرة تريد أن تفعل،
فهذا تمثالنا، تمثال بمثني فرنك. وسوف أحضر لك الكتالوج.
السعر كاذب. لنفترض أنه 220 فرنكًا. كل شيء مفهوم. والحساب
مدفوع».

- «سأرتب كل شيء.. يا إلهي».

أحس القس «فيرن» بالسعادة، فهذه القصة الغبية تمت تسويتها.
عمل «كيروول» حساباته في صمت، التمثال يتضمن قدسيته
المنحوتة فيه. وهو لا يساوي أكثر من عشرين مليمًا، لقد أخذت
السيدة «كيروول»، وبكل ما لديها من حذر، تذكرة يانصيب من
القديسة «أنفانس». وكسبت بمئتي فرنك مشتريات من شركة
صناعات معدنية. وكان الرأس المدبر هو «فرانكو». فتحت زجاجة
نيبذ أحمر لسائق الشاحنة. كل شيء بحسابه، ولم تكن تلك الساعة
من الصباح ضائعة.

ترى هل كان يجهل عظمة كراماته؟ لو كان قد قال «لا»،
لاحترقت صومعته في هذه الليلة.

بويود، صانع العربات

انبعثت الأدخنة عبر المنازل، خلف الكنيسة. آتية من منزل «بويود» الحدّاد. لا يقوم «بويود» بتسخين حديد عجلات عرباته سوى مرة واحدة كل ثلاثة أشهر، عندما تكون لديه

10

توصية بأن ذلك سوف يخفف الألم. وفي كل مرة فإنه يقدم عرضاً للجيران، رغم أن «جوانيو» لم تكن لديه اليوم خطابات ولا صحف، يحملها إلى آل «بويود». إلا أنه لا يستطيع مقاومة أن يسلك الحارة كي يتوقف لحظة في فناء الحداد. إنه استعداد كبير. حيث يساعد الأب «بويود» ابنه «نيكولا» والصبي «چوزيف»، اللذين ينفخان حول كتلة من النيران المشتعلة من الحطب القديم، وسط الأرض الزراعية.

الحداد، رجل عجوز، طويل، أشبه بالمصارعين. تُحوط وجهه لحية أقرب إلى السواد الرمادي فتجعله أشبه بذئب البحر. لم يره أحد يبتسم قط. هجرته زوجته بعد خمسة عشر عاماً من العبودية، فقد مارس عليها كل وجوده الثقيل، وماتت من شدة المعاناة. إنه يعيش الآن مع ابنه «نيكولا» الذي احترف المهنة، ويريد أن يتعلم

كي يذهب إلى الكتاب. لكنه لم يجرؤ قط أن يتكلم عن ذلك إلى العجوز. وفي البلد، فإن «بويود» ذو سمعة سيئة، يقال إنه لم يعقد صداقات مع أحد. وذلك لا يمنع أن شهرة محل الحدادة تصل إلى المدينة الكبيرة «فيل جراند».

منذ البارحة، تأهبوا جميعاً للعمل فوق كومة القش الناشف والنفايا، لقد وضعها «بويود» فوق بعضها. أكثر من عشر دوائر حديدية، ثم ملأ المدخل بالمذرات القديمة، ورتبها جميعاً حول حظيرة القصب. حتى توارى المحل وراء كمية ضخمة من الخشب المتراكم. هذا الصباح، لم يبقَ أمامه سوى أن يسكب عليها نصف صفيحة من الكيروسين، وأن يشعل النيران.

ارتعدت الغابة، وانتشر الدخان الأسود على مساحة كبيرة، وظل ينتشر في الفناء ثم دار في الهواء الساخن، وراح يتسرب طويلاً فوق الأسقف.

عندما اقترب «جوانيو»، كان الحطب القديم قد بدأ في الانهيار في كل النواحي، وبدأت الأطواق الحديدية في الظهور، محدثة كمّاً كثيفاً من الرياح الحمراء، إنها اللحظة التي ينتظرها «بويود» بسخرية وسطوة، فهو الذي يفعل كل شيء: فالغلامان ليس عليهما سوى الخدمة، صرخ فيهما:

- «اجلباه!».

جرى «نيكولا»، و«چوزيف» بحثًا عن أول طوق حديدي، وراحا يديرانه ناحية النيران، ثم وضعاه فوق نجمة حديدية. وثبتاه بماسك يمر خلال ثقب البكرة. وراح كل من الرجال الثلاثة يتسلح بسبخ طويل من الحديد، وهم يقفون على مسافة مناسبة حول بؤرة النيران. ردد العجوز: «واحد، اثنان، ثلاثة».

دفعوا وسط النيران واحدًا من الأطواق المتداخلة، ووضعوه فوق الطوق الذي كان له تقريبًا القياس نفسه، وثبتوه فوق القرص. وما إن لمس الحديد الأحمر، اشتعل الخشب بقوة شديدة.

صرخ «بويود»:

- «بسرعة!».

كان هناك وعاءان نحاسيان مليئان بالماء في الانتظار، يُحملان باليد، وبمساعدة رشاشات المياه التي تنغمس في الأواني. أسرع «نيكولا» و«چوزيف» بإخراج الطوق بسرعة، فاندفع البخار بقوة، مطلقًا صفييرًا. ارتدَّ الرجلان للخلف، ورغم ذلك فإن النيران التي انطفأت، اشتعلت من جديد، وانطلقت رشاشات المياه، ثم خبت، وانسابت المياه بقوة وخاض الغلامان في الوحل. وراحا يناضلان ضد النيران التي لم تكف عن الخبو والانبثاق، حول الأطواق. غمر «بويود» الحديد حتى بلغت النيران إطار العجل، وبدأت الأبخرة البيضاء في التصاعد حيث خمدت كل النيران وبدأت أطراف الطوق

الحديدي تتلمس طريق البرودة، وها هو ينتقل فوق الخشب. لقد
تم صهر الطوق الأول.

صاح العجوز «هوب!».

بكل حذر، رفع الغلامان الطوق، ودس «بويود» سيخًا في
الوسط، وأداره حتى استقر القفص في حوض مليء بالمياه. هنا،
علق «بويود» الطوق بشكل متوازن بطريقة اعتاد عليها منذ أمد
طويل وحده، وانتهى الأمر بالتبريد وانسال الطوق بصمت شديد
في المياه.

شعر الصغير «چوزيف» بالإرهاك، ولمع التعب في عينيه. فقد
تبلبل بنطاله الكتاني الأزرق حتى ركبتيه، ونز قميصه من العرق
حول ظهره.

صاح الحداد:

- «التالي!».

هتف «جوانيو» وهو يصفر لكلبيه:

- «هيا يا شباب!».

مدام ماسو وابنتها

11

كانت إقامة و حياة السيدة «ماسو» بالغتي القسوة. فمن الشارع، لا يُرى سوى جدار عالٍ. جدار «ماسو»، يحوط منزلاً كبيراً. فقد كانت السيدة «ماسو» وابنتها تمتلكان المال، لكنهما كانتا تتظاهران أنهما على غير علم بذلك. وتعيشان مثل الناسكات الفقيرات، وسط خشية العوز.

بكل شجاعة، تمكن «جوانيو» من الدخول إلى هذه القلعة المحصنة مع كلييه في وسط الفناء القديم الذي يحيط هياكل البيت الثلاثة. هناك امرأة في الخامسة والثلاثين من العمر، في الشمس، وقد تغطت بجريدة مثنية إلى جزئين، وهي تنظف عش العصافير:

- «هذه باقة موصى عليها لأملك. يا آنسة، يلزمي توقيعها».

وضعت الأنسة «ماسو» مرش المياه، وتصفحت وجه ساعي البريد ببرود، ودهشة. بدت مستعدة أيضاً أن تغادر المكان دون رد، وأن تسير تجاهه، وتدفعه للخارج، لكنها هوت رأسها واستدارت حول نفسها وصعدت درجات الدرايزين، يتبعها «جوانيو»، عبر

الممر الأشبه بالكهف، إلى أن وصلا إلى سلم حجري قديم، بليت درجاته من كثرة استخدامه.

أمام النوافذ المغلقة، جلست السيدة «ماسو» تطرز، وقد أغلقت غرفتها على نفسها. وفي هدوء، كانت ترتدي ملابس وكأنها في لوحة فنية، ذات ثوب واسع من الحرير، لكنه بال، لا تخلعه طيلة النهار وأيضاً طيلة الليل، لأنها تنام به تقريبا. تحسب غرزها، وتدخل الإبر الطويلة في الصوف. إنها تفعل ذلك منذ خمسة وعشرين عامًا، وكل أطفال القرية - أثناء الحرب، وفي كل أطراف المقاطعة - فإن السيدة «ماسو» قامت بتطريز ملابسهم الداخلية وسراويلهم وقلنسواتهم. فهذا هو عملها الوحيد. إنها تعطي لنفسها الحق أن تناديهم:

- «آه.. يا مساكيني!».

لم تسمع المرأة الصماء باب المنزل وهو يفتح. وامثلت ابنتها أمامها، وهي تصرخ في أذنها:

- «أمي، إنه الساعي يطلب توقيعا».

الوجه القديم، الشاحب والهش، كما ورق الحرير، يستدير برعب ناحية «جوانيو»، ثم ناحية الفتاة.

فهمت السيدة «ماسو»، وسألت:

- «ألا يستدعي هذا بعض المصاريف على الأقل؟».

- «لا يا آنسة».

صاحت الآنسة «ماسو» بصوت مؤكد:

- «لن ندفع شيئاً!».

بكل حيوية غير متوقعة، قامت السيدة «ماسو» وأخرجت من تنورتها سلسلة مفاتيح واتجهت نحو خزيتها وفتحتها. أمسكت ريشة صغيرة راحت تحركها في حذر، وبللتها.

قال «جوانيو»: «هنا».. وهو يشير إلى المكان الذي ستسجل عليه توقيعها.

كان الحبر أكثر سيولة، مما جعلها تخاطر بتنشيفه بالمنشفة. تبادلت المرأتان النظر، لا داعي للبقشيش لساعي البريد.

في الفناء المظلم الصغير، حيث تزقزق الطيور الحمراء بعد أن خرجت من القفص، سكبت المياه التي في الرشاشة، وتحركت في كل مكان بلا جدوى، وهي تعلق بألستها فوق الأطلال المحترقة.

بينما وقفت الآنسة «ماسو» تتأكد إن كان «جوانيو» قد أعاد غلق الباب الرئيسي.

عندما جاءت السيدة «ماسو» - التي لم يكن أحد يعرفها في القرية - للاستقرار مع ابنتها في منزل لم يسكنه أحد منذ فترة طويلة، سوى جدة زوجها منذ زمن، أثاروا بعض الضجة غير المتوقعة، كان يُنظر إلى هذه الأسرة بنوع من الزيف رغم تردهم المنتظم على الكنيسة. وفي أثناء شبابها اشتهرت أنها تغني أغنية «مارسيليا» الصاخبة، وبخفة ساقها - كما يقال - كأن يمكنها أن تكون دافعاً للصراع، حيث لاقى الكابتن «ماسو» الموت من أجلها، في حامية في جنوب الجزائر!

حدث هذا منذ خمسة وعشرين عامًا، ولم يعد أحد يفكر. خمس وعشرون سنة وهي تسكن هناك. وحيدة مع ابنتها. في هذا السكن القديم الذي يشع برائحته المميزة - مثلها - وبجلد القفازات الذي ظل داخل صناديق مغلقة لفترة طويلة. لم تشغل المرأتان سوى غرفتين. في منزل به ذباب وفئران وأتربة، وقد سُدت الممرات بخزائنها، ثياب مربعة تتراكم في العلب الفارغة، والغرف البيضاء ذات الدواليب القديمة، والمؤثثة من السياجات المعلقة، والأسرة ذات الناموسية. أمام النوافذ ركام أسود، يحدث أقل حركة ضجيج عند الأوراق الجافة والذباب الميت.. الميت من الملل.

وقفت السيدة «ماسو» وسط الغرفة تتلفت حول نفسها، ثم تعاود الالتفاف فوق أصابعها كدمية، وهي ممسكة بالباقة البريدية

التي وصلتها. تنتظر عودة لياقتها، لأن كل هذا يستدعي نشاطًا خاصًا. سلمت نفسها لهذه الفتاة. بعظامها ودمائها، والتي تعرف كيف تضخ المياه، وتنشر الخشب وتلمع وتدهن الأرضية، وترد على القداس، وتناقش مع الحواس. وأيضًا - بالمناسبة - تذبح على حين بغتة أرنبا وهي تشير له إلى نصل السكين.

فتحت الآنسة «ماسو» اللقافة بسرعة. وكانت تلزم السيدتين ربع ساعة لتفهما ماذا وصلهما. وأن هذه الماسورة التي سقطت فجأة من اللقافة ليست سوى نموذج لأشياء تنبعث منها روائح غير طيبة. أخيرًا، فالحياة لحظة متقلبة، وما تلبث أن تستأنف مسارها. استدارت الأم إلى ما تحكيه إلى ابنتها، وإلى طيرها.

إنها الآن في الثلاثينات. في الربيع، تمتلكها مشاعر مضطربة، وهذه الفتاة الحية يمكنها أن تستمر ساكنة لساعات، تنظر إلى أعشاش الطيور، حيث توجد الإناث، وعندما تحبس صغار الطيور، فإن سعادتها تتمثل في أن تخفي واحدًا منها، وسط الجو الحار، داخل ملابسها، وأن تذهب إلى عملها دون أن يبدو عليها شيء. ذات مرة أخذته إلى الكنيسة.

كل يوم، في الساعة الثالثة، في الشتاء، وفي الساعة الخامسة صيفًا، يمكن رؤيتها تدخل الكنيسة، من الباب المنخفض لجناح الكنيسة، وتتجه يمينًا ناحية مذبح الاعتراف، لتقف تحت الستار،

وقد تدرثت بحجابها وخمارها. وتكون السيدة «فيرن» قد سبقتها على غير عمد. مثل عاملتين تحبان حاجتهما، إنهما تنهلان من وقت السعادة، فالمرأتان تقومان بالتسبيح وفسح المقاعد، وتملآن القناديل بالزيت. وكأنهما في عيد هذه الأيام فإن العمل يشغل كل ما بعد الظهيرة. يجب تنظيف الشمعدان، وتغيير مفارش المسبح، ومراجعة الزينات، وملء أواني الورد والنباتات، تنظمان كل شيء فيما بينهما كي تظلا تعملان جنباً إلى جنب، وتثرثران بلا توقف. مثل شجرتي لافندر، وتتناقلان كل أخبار اليوم فيما بينهما، لكنهما تتكلمان بصوت خفيض. وبإيقاع واحد تبدوان كأنهما ترددان ما تحفظانه، وهما تكشفان عن القادم. وفي كل مرة تمران أمام مظلة الكنيسة، تقومان بالشعائر نفسها، إيماءات يملأها التقديس، وتبدو مألوفة، فهما تحسان أنهما في منزلهما.

لم تكن الأنسة «ماسو» جميلة، لكنها تجهل ذلك. تمتلك قوة وجاذبية، ألوان الفرس، وأهداب كثيفة، ويدان تبدوان دوماً شديديتي الحساسية، وتبدو عليها الجرأة، وبعض الزغب الأسود في أطراف الشفاه. ومنذ بضع سنوات تحس بكتل من النيران تستبد بها دوماً. في صدغها تنمو بقع حمراء وتتناثر حول عنقها، وفوق كتفها وذراعها. ربما فوق أجزاء من جسدها. لقد فكرت في استشارة طبيب. لكنها تموت ولا تتعري أمام رجل.. مهما كانت الأسباب، فهي

لا تكشف عن ملابسها الداخلية، وعندما تغير ملابسها في الأحد الأول والثالث من كل شهر، فإنها تفتح الدولاب والمرآة، وحتى لا تقع تحت سطوة الإغواء، فإنها تتبادل النظر مع المرأة وتسحب القميص بين أسنانها، ولا تتركه يسقط أرضاً إلا بعد أن ترتدي بديله.

يدهشونها عندما يسألونها هل هي سعيدة، يبدو تعبير الوجه دوماً قلقاً. وفي أيام ما، فإن شيئاً ما يلمع في عينيها، وتبدو نظرتها للأطفال مطبوعة برقة ملحوظة.

ذات ليلة صيفية، عادت وقد لبست حمالة زوجة «فيجو» - عامل السكة الحديد - وسلكت الممر نحو النهر، ورأت ثلاثة غلمان خارجين من المياه، وقد تمددوا فوق العشب، كان عليها أن تمر فيما بينهم. لم يكن أكبرهم طفلاً...

ارتبكت الأنسة «ماسو» لعدة أشهر.. وقبل أن تغرق في النوم، تجد نفسها مجبرة على التفكير فيما رأت، لقد مرت خمس أو ست سنوات على هذا، ولم تمر ثانية من المكان نفسه حتى الآن.

عائلة لوتر وفرتيز، زراعة السباح

12

يسكن آل «لوتر» عند طرف المستنقع. حيث درجة الحرارة أقل دوماً من أي مكان آخر، كان منزل السباح أنيقاً، بشكل جيد، إنه الجندي الألماني⁽¹⁾، الذي يعيد إصلاح السقف

كل يوم أحد، ويعيد طلاء مصارع النوافذ، ويصنع هذه الطاحونات الصغيرة المزركشة التي تدور عندما تهب أقل نسمة هواء في كل أنحاء الحظيرة.

دفع «جوانيو» الباب الحديدي. وصاح:

- «صباح الخير، يا صغيري!».

كان هناك صبي جالس تحت العنبر، بين العديد من السلال، مسترخ تحت صفصافة وارفة الخضرة. تقدم في الشمس، انحنى لمداعبة الجروين، ونادى بصوت مبهج:

- «ماما!».

أعطت بشرته الملفوحة لنظرته وضوحاً في المنبع، فأكسب

(1) FRITZ تعني الجندي الألماني الذي شارك في الحرب.

خصلته الشقراء المجعدة بريقًا. قالت السيدة «لوتر» التي ظهرت
لتوها على العتبة:

- «ادخل يا سيد «جوانيو»، سوف يتكلم إليك الرجال. ابحث
عنهم يا إريك!».

وبكل خفة عبر المراهق الحاجز، وانطلق مهرولًا.

مقسمة إلى مستطيلات صغيرة، ومليئة بالمياه التي تلمع في
الشمس، تمتد الحديقة حتى المستنقع، ويلاحظ - جنبًا إلى جنب
- شابان بالقمصان البيضاء، وكبي يلحق الصبي بهما، قفز على
قدميه وقرع الأجراس ذات السلاسل، الأشبه بآلات ضخمة معلقة
في الهواء.

كان آل «لوتر» قبل الحرب يعملان في الرعي، ليس لهما أبناء،
اهتمت الأسرة بتربية بعض الأبقار وبيع اللبن للقرية، ورثت المرأة
هذا المنزل المهدم وبضعة أفدنة من المراعي المزروعة قرب
المستنقع.

وجاءت الحرب، وفي الأسابيع الأولى كتب «لوتر» من ألمانيا
أنه تم تجنيده في الجيش. وكان على السيدة «لوتر» أن تتصرف،
فالأوراق تباع بشكل جيد. وزادت من تربية الحيوانات كي
تساعد، وطلبت سجينًا ألمانيًا.

قضى الجندي الألماني كل شبابه في «بافاريا»، يعمل عند سباخ، ثم كصانع، وعندما جاء إلى هنا رأى لتوه الجزء الذي يمكن أن يعمل فيه في هذه المستنقعات الخصبة، ووسط سخرية الجيران قام بحفر الحفر، وروى المزرعة بالمياه، وجفف الأرض. مستفيدًا من ثبات التربة كي يعقد نظامًا للري بمساعدة الهويس الصغير ذي الفتحات.

كانت السيدة «لوتر» تعمل إلى جانبه وكأنها رجل. وطوال عامين، تحولت الأعشاب القفر إلى أرض خصبة، بعد أن كان اليأس قد أصاب السيدة «لوتر» التي وجدت الفرصة أخيرًا كي تبدأ في تطور جديد في عملية التسيخ.

لم تكن البلدة تضحك سخرية قط، بعدوانية، من المشاريع التي تحلم بها المرأة، بل كأنهم يتتقنون من الزوجين: وقد أثار ميلاد طفل فضيحة. وانتظر الجميع نهاية الحرب وعودة الزوج الذي يعرفونه عنيفا في الجيش، وكانت مفاجأة: أن المرأة طردت جندها الألماني. ورحل «لوتر»، ذات يوم دون أن يخبر أحداً، ولكن «52 شهرًا» من المعسكر عكست تأثيرها عليه. كأنه في النقاها، فقد اتسم بالكسل، ولم يكن دوره سوى أن يأكل سكرته، ويتصرف على راحته، وجد امرأته وقد صارت شحماً ثرياً، والمنزل قد أعيد بناؤه، والمائدة مهجورة، والتجارة مزدهرة. وحدات من الصفصاف رعاها الجندي الألماني، وزاد الطين بخبراته، كان ينظر بكل هوس

إلى كل هذا بلا غضب: فقد كان يوازن الأمور، أسفل الحقيقة، بأنه ضد كل هذا، أكثر مما هو معه.

قالت له امرأته:

- «لا تكن خصيًّا، إذا أردت أن تستفيد، اعمل معنا، الألماني سوف يعلمك المهنة».

ولم يرد «لوتر» بشيء، وبعد بضعة أيام من الراحة والمتعة بدأ في التعليم.

في الحقيقة، فإن المرأة كانت تؤدي العمل، وظل حساب البنك باسمها، وعندما تتكلم عن زوجها، أو عن البافاري، تقول «رجالي» وكأنها جاويش.

في كل غرفة من الغرفتين في المنزل، كان هناك سرير كبير، تنام السيدة «لوتر» فوق أحدهما، والرجل الثاني فوق الآخر. لكنها لم تعرف أيًا من الرجلين يشاركها في سرير الطفل.

قالت السيدة «لوتر»:

- «سوف تنعش القش، يا سيد «جوانيو»».

كان وجهها الريفي واضحًا وأقل مهابة. وضعت فوق المائدة إبريقًا تنبعث رائحته، وملأت الزجاجات الثلاث بشراب مسكر.

قالت:

- «إنه الألماني الذي يصنع لي ذلك. وهو يغمس أشجار العنبراء في العسل.. لم يكن للقاعة مثيل في البلد، ولم يجرؤ «جوانيو» قط أن يقترب من كلابها، كان أثاث منزلها، والأرضية مدهونة بالشمع الأشقر، والستائر التي تخفي ملامح النهار والحديقة، وألواح الخشب متعدد الألوان، والنوافذ، تؤكد أن الألماني مر من هنا.

كان الرجال يدخلون المكان بالأحذية، ويدوسون فوق الأرضية، يرتدون القمصان النظيفة، والبنطالات المحبكة النسيج، لكن الفلاح الفرنسي القصير، أجعد الشعر يبدو، قريباً من الألماني. قالت المرأة بصوت أمر:

- «اشربوا بهدوء، إنها قسوة هذه الحرارة».

وبعد نظرة تجولية، انسحبت ببطء.

جلس الرجال الثلاثة في صمت.

قال لوتر:

- «يجب أن تؤدي لنا خدمة يا «جوانيو»».

راحت عيناه تلمعان، يهتز عجزه في طرفه مما يعطيه شكلاً أكثر بهجة «إنه يشبه الجندي». يتطلع البافاري من فوق كتفه إلى رأس المسيح. يخفض عينيه فوق الأرضية يشير «لوتر».. ماذا؟.. كأنما

قام «جوانيو» بحركة مفاجئة. «لا تقل العكس» فهذا سيكون أفضل للجميع ..

يتجرع من الكأس. ويتوقف قبل أن يكمل:

- «نحن لا نعرف اللوائح. هل يجب أن تناقش العمدة وتبلغنا بذلك بأقصى سرعة؟».

أحس «جوانيو» بنظرة الألماني نحوه وبنظرة «لوتر» الزرقاء والمحددة. علق «لوتر».

- «سأخبرك بذلك لتوي، يا «جوانيو» فالوقت الذي سوف تضيعه في هذا العمل لن يكون وقتًا ضائعًا بالنسبة لك. فالمرأة موافقة بأعلى. الخدمة خدمة والنقود نقود».

قال ساعي البريد:

- «لا تتكلم عن هذا فالألماني شخص أكن له الاحترام، سوف أخاطب العمدة، إذا أردت. فقط سأقول لك إن منحه الجنسية اليوم سيكلف الكثير».

- «هل سيتكلف أكثر من هذا؟».

- «أعتقد ذلك».

نظر الألماني من جديد إلى الأرض، وبأصابعه الطويلة النحيفة، راح يداعب رقبة الطير، بينما أخفض «لوتر» أهدابه للحظة، ناظرًا

نحو الكأس الفارغة، ثم قال:

- «في هذه الحالة هل ترى أننا يجب أن نعرف الثمن؟ المرأة هي التي فكرت في ذلك. لكن ليس المصروف هو الذي يجعلني أتعجل. اعلم، سوف نرى إذا كان هذا أفضل».

قال «جوانيو» وهو يحمل صندوقه:

- «مفهوم».

ظلت السيدة «لوتر» جالسة خلف الباب. وجهها شديد الجمود عن ذي قبل. ألقت نظرة مليئة بالإلحاح إلى ساعي البريد:

- «هل نعتمد عليك يا سيد «جوانيو»؟ هذه بطيخة صغيرة حلوة من أجل أن تتناولها زوجتك في الغداء».

اللاجئون البلجيكيون القدامى - البوهيمية الصغيرة - السمراء

تستيقظ الأسرة البلجيكية، دومًا قبل الديكّة، لكن تلمزها ساعات عدة لكي يقوم عائلاها. تخرج العجوز من السرير أولاً. متكسرة في جانبها الأيمن، وتعاني طويلاً قبل أن

13

تتمكن من التماسك. تستريح بين كل مجهود، وهي تسربل جوربها وتنورتها.

ينظر البلجيكي من سريره. يود لو ساعدها. لكنه في حاجة أيضاً أكثر منها، أكثر من حاجتها إليه. عندما تتأهب أخيراً، تفتح الأغطية، وتسحب من الحاشية ساقي زوجها الثقيلتين. ثم تمر وراء السرير، تسند عقبها إلى العمود، وبينما كان العجوز يمسك بالحبل الذي ينزل من السقف تضع يديه على ظهره، وتدفع بكل قوتها. يتشجعان معاً: «هان.. هان..» يرتفع صدر العجوز وينخفض. أكثر من مرة. يتابها الغضب. تهينه، وتتعامل معه بقسوة، وبأنانية؛ في بعض الأحيان، تبكي من الجبن. أخيراً، يقوم بقفزته، يترنح ثم ينهض على قدميه. يقف عاري الساقين، بركبتيه المتلامستين، وعينه المقوستين، وذقنه الطويلة المعقوفة، وقد بدا أشبه بمهرج. لكن

الشيء الأقسى قد تم. مستندًا إلى عصاه، يصل إلى الحائط ويستند عليه، بينما جلست هي قبالة كي تلبسه جواربه وبنطاله. يشكرها وهو يتحسس عنقها بيده الخشنة.

يستند كل منهما إلى الآخر، ويخرجان بخطى قصيرة، وبيقان في الخارج. لقد بدأ النهار. وها هي الأسرة البلجيكية تجلس في الفناء.

وصلا من «موييرو» في أغسطس 1914. كل اللاجئين الذين جاؤوا معهما عاودوا الرحيل منذ زمن طويل. أما هما، فقد اشتريا هذا المنزل الصغير، البعيد قليلًا عن القرية، وهناك حلت بهما الشيخوخة. ودودان مع كل الناس، خدومان، لم يزعجا أحدًا، ولم يحبوهما قط، يشاهدانهما دائمًا في حالة بيع، لكنهما أبدًا لا يشتريان. رغم سنهما، فإن العجوز لم تتردد في العام الماضي في أن تقوم، مرة كل شهر، بتفقد المواقع التي تفصل «موييرو» عن المدينة الكبيرة، من أجل بيع زوجين من الحمام مقابل خمسة وعشرين مليمًا أكثر، أو ملء سلة بالخوخ الأخضر. لكن الآن، حلت الشيخوخة الحقيقية. لم يترك البلجيكي سريره قط أو مقعده المصنوع من القش. تنحني العجوز على مقربة منه، إنها لا تقوم إلا بدافع الضرورة: تسخن بعض الحساء، تسحب وعاء الماء، تحضر الزهرية، أو تلقي حفنة نخالة داخل جحر آخر أرنب على قيد الحياة داخل الجحر.

وجدهما «جوانيو» جالسين أمام مطبخهما.

الفناء الذي كان دائماً معتنى به، غزته الآن الأشواك المليئة بالتراب. حول العجوزين تسقط أوراق شجرة الأكاسيا العجفاء ظلاً باهتاً لكن دمهما البارد لم يعد يعمل حساباً للشمس.

- «صباح الخير أيها الجار».

ابتسم البلجيكي، ف«جوانيو» يناديه «بالجار» منذ أن اشترى هذه الكرمة فوق مرتفعات غابة «الوران»، المجاورة لمنزل العجوز. قال ساعي البريد وهو يفتح حقيبته:

- «ها هي أخبار من الوطن، لن أوصيكما أن تحتفظا لي بطابع البريد من أجل مجموعة رئيس المحطة».

هزت العجوز رأسها بأسى أسفل عربة مصنوعة من القش الأسود الباهت، كأنها رأس ميت، وقد بدت تجعيدات شعرها الأبيض كزينة عبثية:

- «من المثير للملل أن يصاب المرء بالشيخوخة يا سيد «جوانيو» خاصة ونحن في سن السبعين جئنا من بعيد.. اجلس لحظة، فأنت لا تزورنا دائماً.. في الليل. يمكنك أن تصدق، كم أحس بالخوف، هيا.. عندما سيموت أحدنا - ولنفترض أنه أنا - ماذا سيفقدو عليه الآخر، لن يكون لديه أحد؟.. مثلما أخبرتك يا سيد «جوانيو»، إنه لن يمارس أموره وحده!».

ظل العجوز ساكنًا، عصاه بين ركبتيه، يركز، يثبت عينيه الصافيتين نحو ساعي البريد حيث يقرأ فيه الخجل والخوف.

- «لماذا لا تتخذان خادمة؟».

ارتعد فم المرأة العجوز:

- «شكرًا، يجب أن ندفع لها مرتبًا! القليل الذي نقتصده من إيجار نصف حديقتنا وكرمة غابة «لوران». هل سيذهب هذا إلى جيب شخص آخر؟ سيكون هذا من بين خصوصيتنا! آه يا سيدي العزيز «جوانيو»، نحن لا نتكلم دائمًا - نحن الاثنين - ما يجب علينا فعله عندما كان يمكننا الذهاب والمجيء، هو أن نبحث عن فتاة طيبة، قوية، غير متهوره. سوف نقول لها: تعالي لتعيشي معنا، دون أن تكسبي شيئًا. لقد اتفقنا أنه بعد موتنا ستترك لك كل شيء. المنزل والحديقة، وكرمة غابة لوران - وأيضًا بعض المدخرات الصغيرة!...».

ضغط كل منهما على يد الآخر الخشنة، وتنهد:

- «يجب أن يحدث هذا يا سيد «جوانيو»، لكن تأخر الأمر. وكي نجد هذه الفتاة اليوم، فإننا مثل من يضع الخيط في الإبرة بدون نظارة».

تساءل «جوانيو»: يا إلهي يا إلهي.. المنزل والحديقة.. والكرمة.. خرج من القرية، تحت شمس لا تحتمل، وأخذ وجهته

نحو «فورش» حيث يوجد محل السيدة «فلامار». تمرغت في ملابسها القديمة، طفلة صغيرة، تداعب معزتها بطول السور. إنها طفلة لدى آل «موريسو» مثلما ينادي زوجة «موريسو»، صاحبة الصدر الضخم. لقد نضجت الصغيرة بعد سنواتها الخمسة عشر، وهو ما يلاحظ أسفل المريلة الممزقة الممتدة فوق رقبتها الوليدة.

قفز «جوانيو» من فوق عربته، سعيداً مما دفعه إلى أن يصفر.

- «كيف الحال، يا وزتي».

نظرت إليه وهو يتقدم نحوها، دون أن تتحرك وقد امتلأ شعر السمراء الكث بالعرق، وقد لمعت عيناها وراء أهدابها، أما بشرتها الداكنة، فقد جعلتها أشبه بشابة بوهيمية صغيرة.

هزت كتفيها.

- «هذه الليلة، تقياً دماً».

نظر ساعي البريد إلى الكلاب الصغيرة التي تشم ساق الفتاة.

- «إنه هو من أجل جذب الكلب، أو لجلب البعوض الذي أشرت لنا عليه مثل ساقيك».

لملمت ساقها، وسحبت تنورتها إلى ركبتيها العاريتين، وضحكت ساخرة:

- «ماذا يمكن أن يفعل هذا بك؟»

قال «جوانيو» بجرأة:

- «يا صاحبة اللسان الطويل. أنا واثق أنك بلا سروال.. أنت تستحقين ضربات رائعة على مؤخرتك الوقحة!».

وقفت، ثم قفزت جانبًا، مثل جدي:

- «يجب أن ترى!».

من حولها، بدا الهواء ساخناً، كأنها فوق نار تزيد النهار سخونة. أخفض ساعي البريد عينيه:

- «سوف أقابلك وحدك يوماً في الغابة يا حلوتي، وستكونين أقل تبجحاً مثلما هو على الطريق الرئيسي!».

ضحك، وجفف جبينه، وراح يتشاءب، واستكمل طريقه، مع أحلامه: المنزل، الحديقة، الكرمة.. إنها، بشكل خاص، هذه الكرمة التي تداعب رأسه: قطعة أرض جميلة حقاً، استعرض ما هو أحسن، وبطول الكرمة، فجأة ضرب بركبته..

آل «موريسو»، أقسم! ترنج، ثم تماسك، وبدا في السير يميناً، وهو يحس بالشمس التي تشبه حراك الجمر. ومن خلفه تسلك الكلاب دربها، في دوائر حلزونية متربة تستمر لوقت طويل معلقة في الطريق. إنه الآن وسط القرية، لا أحد على قيد الحياة. فرقعات العجلات الجافة، ولهاث الكلبين، يضجران الصمت، عن اليمين، هناك طفل استأصلت حشائشه تحت الشمس. على اليسار، يتمدد

البنجر بلا أشجار: الجذور الوفيرة، تبدو أشبه بكتل مكشوفة، كأنها ترتفع بعيداً عن هذه الأرض العجفاء. وهي تختنق، تتقافز مجموعة من طيور الحجل فجأة مع أصواتها المخيفة، وتضرب الظل من فتحة قريبة هناك، طائر فوق الأرض يحاول أن يقتصد جهده.

بدلاً من أن يتوقف عند «فاروش»، كان «جوانيو» يمشي في الممر، ويجتاز الحقل.

كان كوخ آل «موريسو» قد ضاع وسط الأراضي. عند اقتراب الكلبين، امرأة في سن الثلاثين، سمراء قوية، تأخذ مكانها قريباً من البئر، توقفت ثم استدارت، صاح «جوانيو»:

- «أين هو، هل يمكن أن نراه؟»

ثم أخفض صوته:

- «يجب أن أتحدث معك بكلمتين يا «موريسو»».

غرفة واحدة ينبعث منها الدخان، الذي يكشف عن الطعم الحريف. في مخدع، فوق فراش، يتمدد المحتضر عن اليمين. النصف الأعلى ممتلئ بالحقائب القديمة المليئة بالشوفان، ليس هناك بوفيه، ولا مقاعد. فقط مقعد أمام خزانة تستخدم كمائدة. وفي ركن، هناك تبن من أجل الفتاة البوهيمية الصغيرة التي تظهر في النافذة المفتوحة، حيث تنبعث رائحة المزابل الثقيلة، تسخن الشمس ثم تبرد. قامت الكلاب بعمل دورة في الصالة، سوف تزداد

نفورًا من الجثة، وهي تقترب من الباب.

سأل ساعي البريد:

- «أليس هذا أفضل؟»

رد «موريسو» بصوت يشبه رنين الجرس تحت القبة.

«بلى».

ألقى نظرة تحدُّ نحو زوجته:

- «غداً أستيقظ!».

تصفحت المرأة وجه زوجها في ترقب، وكأنهما على انفراد.

همست «موريسو»:

- «هذا القدر، لا شيء يهمله كي يذهب ليشرب ويبحث عن

يوقظه. لكن لا يوجد طعم مر هنا، وإذا ذهب إلى القرية، فأنا واثقة

أنه سوف ينفق عشر مرات، قبل أن يصل إلى الحانة!».

اهتز «موريسو»، وزمّ فكاهه وتسمر، غير قادر على الحركة، لقد

انقلبت الأدوار، هذه الأنثى، التي تكيل الضربات بلا هدف، من

أجل أن تتمتع بما تفعله، أمامها ستة أسابيع. الآن سوف يشكر،

يخنقه الغضب: غضب حيوان محبوس داخل مصيدة..

إنهم يعرفونهما منذ زمن طويل في البلاد: طفلان لقيطان،

تربيا في هذا المكان، زوّجهما المفتش الإقليمي، هي خادمة في

الفندق الصغير، حملت في سن السابعة عشرة، وهو عامل يدوي، سيع المظهر، يشعر بالخوف، ودائمًا بلا عمل. فالقليل من الناس لا يعينهم توظيف طفل سفاح. ابن غير شرعي، كان عليه - قبل أن يسقط مريضًا - أن يقبل الأعمال الصعبة، وبأقل أجر. كان يعزي نفسه بالشرب طيلة المساء، يقيم عند «بوش»، عندما يكون الرجل مليئًا، والصرّة خاوية، فإن الكافتيريا تلقي بهم في الخارج.

امتلك «موريسو» كوخًا قديمًا موجودًا وسط الحفرات، كي يمرر غضبه - أو خجله - سحب امرأته من السرير وراح يصفعها، وعندما استكفى منها، استحوذت عليه فكرة دفعها فوق التبن.

استيقظت الفتاة بغتة، تكرر كع أسنانها من الوجع والخوف، إنها دائمًا تتقبل نصيبها من الصفعات. مثلما تلقت في الشهور الأخيرة، نصيبها من المداعبة، فإن الأم كي تحقق السلام، فإنها تنام وترك نفسها تفعل. قالت:

- «أنت لست ابتته، ولولا هذا لكنت حبسته».

سلك «جوانيو» الممر وهو يمسك المقعد بيده. مشى بخطى كبيرة، وهو يفسد ما يجري. كانت «موريسو» تتمتم في صمت إلى جانبه، ثم همست:

- «الأمر أجمل من أن يكون حقيقة».

زمجر «جوانيو»:

- «لا تتغابي. دعيني أدبر الأمر فقط، هل فهمت؟ معطاء، معطاء. إذا وصدفتك عند البلجيكين، سوف توقعين لي ورقة، وفي اليوم الذي سترين فيه المكان سوف أحصل على الكرامة».

وصلا إلى الطريق الرئيسي. وقفت أمامه، وقد تماسكت فوق حذائها الخشبي. يقع كبيرة من العرق بللت القميص، تحت الإبطين. داعب ساعي البريد بعينه المؤخرة العريضة، والصدر المكبل، المعطاء.. المعطاء. كل هذا مسموح. والآن يتوقف الأمر على النجاح.

نادى كلابه، وهي تنفث هواءً ساخناً، بينما راحت سحابة تظلل السماء، قال:

- «إنه الإعصار..»

استأنفت المسير في الممر والرأس يغلي، مترنحاً بالأمل. أما المحتضر فلا يزال هناك، يمكن أن يطلب، وأن يتقيأ رثيه فوق حقائق الشوفان! آه لو كانت تعرف الطريقة التي تنتهي بها حياته، دون تلكؤ...

مدام «فلامار»

يعتبر محل «فورش» - حانة النبيذ والمشروبات
- منزلاً منخفضاً على مفترق ثلاثة طرق، وسط
المناسف.

14

كل شيء مغلق، أوقف ساعي البريد آتته أمام النافذة، وطرق
على المصراع:

- «يا سيدة «فلامار»».

صدرت حركة خفيفة بالداخل، ثم صرخ صوت خفيض
الصفير:

- «هأنذا..».

صرصر المفتاح، وانفتح الباب.

- «آه، هل أنت، يا سيد «جوانيو»؟ ادخل.. فقط سوف أنتهي من
ارتداء ملابسي».

ترتدي تنورة من الحرير، انتهت من ربط الأزرار على صدرها
القرباني، كورسيه وردي مجوف بشكل عام.

القاعة مشرحة للصدر، تكاد تكون مظلمة، يتسرب فوحان حمضي من الليمونادة والعطور، اعتقد «جوانيو» الذي أصغى السمع، أنه سمع صوت إغلاق الباب بحذر من الخلف، الذي يطل على الغابة.

تمتم:

- «هل أزعجتك؟».

بدا أنها لم تسمع، وضعت فوق القمطر لترًا من اللبن، وزجاجتين أمامه.. وبدون مقدمات، وضع رسالة قبالتها.

- «هل هذا من أجل «فلامار»؟».

- «افتحيه إذن».

وأطاعت، وبينما هي تمزق المظروف، مست نظرة ساعي البريد، في استمتاع الذراعين العارتين، البضتين مثل الساقين، كاشفة عن آثار مكان شرط التطعيم الثلاثة ثم ارتفع، وداعب ثنيات القبة الكثيفة وأيضًا خديهما المغطين بالمساحيق، الضفائر الحلزونية المليئة بالزيت وبها مشابك من الماس الصناعي، والأمشاط متقنة الصنع، شكّل كل هذا صورة جميلة للسيدة «فلامار» التي رفعت جبهتها، مدت له الرسالة.

- «من الوغد الذي كتب هذا؟».

قرأ لها «هذا».. قبلها، لكنه بدا غيبًا..

- «الرسالة غير موقعة؟ أشك في هذا.. عندما تكون له مهارته فإن شخصًا مجهولًا يشم الثمرة عن بعد..».

وضبط نظارته وبدا كأنه يقرأ.

وارتطم بالذراع العارية فوق المائدة.

- «القهوة!».

تمتم «جوانيو»:

- «يجب ألا نتهم أحدًا دون أن نتأكد يا سيده «فلامار»، وخاصة رجلاً أدى اليمين».

وكررت، والنيران تبدو فوق خديها:

- «إنه هو! خيال المآة! وعندي أسبابي!».

قال «جوانيو» وهو يعيد الرسالة، ويفحصها بلا مبالاة ثم

يبتسم:

- «في هذه الحالة.. قهوة زيادة».

لا شك أن خيال المآة هو خصم لساعي البريد.

استعاد الرسالة وتفحصها بإهمال، ثم ابتسم:

- «الملعون كوفان!».

خيال الحقل هو خصم لدود لساعي البريد، مساعد قديم لملاك الأراضي، إنه يمارس وظيفته، عند آل «بوس» على مائدة المحاربين القدامى. منذ أن تم إعلان هدنة «برلين». شك «جوانيو» أنه يعمل دعاية خفية من أجل السيد «بييل»، ضابط الفرسان القديم الذي رشح نفسه للعمودية، وراقب «كوفان» عن قرب. لكنه أراد من خيال الحقل أن يرتدي زيه الرسمي، حيث يثبته ألا يمتلك الكاب «اللبس الكاكي» الوحيد في القرية.

زلق الرسالة في جيبه، إنه يمتلك الآن سلاحًا ضد كوفان. قال:

- «لا مانع، فبدوني سيكون الأمر قبيحًا بالنسبة لك!».

- «قبيحًا؟».

ضحكت بكل عجرفة، وراحت تداعب ساعي البريد فجأة.

- «لا تعتمد عليّ يا عزيزي! «فلامار» غيور، أنا أمارس عملي! ونجاحي يثير غضب «فلامار» الطيب ضدي. هل يجب أن يستيقظ صباح كل يوم قبلكم جميعًا». وبدا كأنه يحس بالندم لكلماته.

- «لقد تصرفت بشكل مناسب يا سيد «جوانيو». لأن هذا سوف يسبب الحزن للصغير، وأنا أشكرك لأنك تفاديت ذلك..».

أدار «جوانيو» سيجارته، ونظر إلى السيدة «فلامار» تحت عينيه المنهمكتين. كما لو كان يريد شيئًا، وقرر أن يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك:

- «فيما بيننا فقط، يا سيدة «فلامار»، لماذا تعيشين هذا النوع من الحياة؟».

- «أية حياة؟».

عندما رفعت رأسها، راحت مناخيرها، ترتجف أقرب إلى منخر العجل.

- «هيا هيا، كن «جوانيو» الطيب. لا تمثل دور الرقيق معي.. سوف أخبرك بما أفكر فيه، ما دمنا هنا، حسب أحاسيسي. فأني امرأة تذهب كل مساء للنوم إلى جوار «صائع» مثل «فلامار»، يجب أن تحترم كلمتها. وأن تتماusk أمام كل شيء!».

- «نعم؟».

لم تغضب السيدة «فلامار»، فقد تاهت فوق شفيتها المكتنزتين ابتسامة باهتة ومبهجة، غير موجهة لأحد، وكأنها انعكاس لشعور داخلي بالبهجة، وهي تقتل ذبابة أسفل ذراعها الملحم، ثم ألقته فوق الأرض بازدراء، ونظرت للحظة إلى ساعي البريد قبل أن تتكلم:

- «يمكنني التحدث معك يا سيد «جوانيو»، فأنت من النوع الذي يمكن لليمين واليسار أن يتحدث معه.. حسنًا. سوف أخبرك بشيء طيب: «فلامار»، ليس رجلًا، أيدهشك هذا يا ولدي؟ إنه مثلما قلت لك. كم هو «صائع».. «فلامار» لم يمارس شيئًا قط مع امرأة، ومنذ ست سنوات ننام معًا.. لم يلمسني مرة واحدة قط».

تجرعت من الكأس، ثم وضعت كأسها ببطء، وأكملت بانتباه:

- «لهذا أنا متمسكة به، إذا صدقت ما أقوله لك. لقد كان لدي رجال عديدون في حياتي الداعرة. وأنا لا أخفي ذلك، ولدي طبيعتي، لكن «فلامار» - بصرف النظر عن الآخرين - هو الرجل الذي أحببته منذ أن عرفته: كان يأتي كل مساء إلى الحانة ومع الزهور، وهدايا صغيرة.. وعندما قلت له: اصعد معي.. قفز مثل قزم، أقسم لك! وعندما عرفت أخيراً سبب خجله الشديد، لا تستطيع أن تعرف ماذا فعل هذا بي. أقسمت أن أترك كل شيء كي أعيش معه. وكنت عند كلمتي! حتى لو تألمت وأنا أجمع القروش. فليس من أجلي، هيا! رغم أنني أحب الكسب كما اتفقنا، مثل الناس كلها، إنها من أجل رجلي.. فأنا أكبره باثني عشر عامًا. إنه شيء غير ظاهر، لكنه مأخوذ في الحسبان. فالعمل الذي أمارسه، وما يجب أن أعقله، لن يستمر طويلاً، وأنا أريد أن يكون للصغير - فيما بعد - خبزه وزبده، والمذاق في قهوته، والتبغ في غليونه، دون أن يخسر شيئاً!

أسندت مرفقيها فوق المائدة، ودقت ذقنها المزدوجة في كفيها، وهي تتفحص ساعي البريد الذي أغمض عينيه دون أن ينطق بكلمة.

- «ها هو - يا عزيزي - ما يتعلق بفهم الأمور. وليس للحكم على الأشياء بسرعة بمجرد أن نراها..».

همس «جوانيو» وهو يحس بألم في بطنه:

- «رغم كل ذلك!».

العمدة، والمؤسس

15 أثناء الربع ساعة التي قضاها «جوانيو» في المحل، تلبدت السماء فجأة، أما تحت الغابة فقد كانت هناك حرارة تنقصها الرطوبة، وشكل البعوض تجمعات كثيفة. مثل نهاية ما بعد

الظهيرة، شذا عيش الغراب الذي على وشك أن ينمو فوق الأرض، في التبات التي ترتعد فيها الأرض الخصبة تحت العجلات مثل المحمصات، لم تتوازن أي نسيمات فوق حقول السرخسيات الواسعة.

هتف الساعي إلى الجروين اللذين يتبعانه: «بسرعة، بسرعة» وقد برز لساناهما وهما يصدران جلبة خفيفة، كي يستأنف الرحيل وهما ينفثان.

تهب من ناحية المدينة الكبيرة «قيل جراند» سحابة داكنة، قادمة من الأفق، وبينما يعود «جوانيو» إلى القرية فإن العديد من النباحات البعيدة تعلن عن قدوم العاصفة. ووراء جدرانها الدافئة، ومصاريع النوافذ المغلقة، وفي غرفها سيئة التهوية، السوداء من الذباب،

زمجرت «موبيرو».. وتنفست، من هذه الرطوبة، وفاحت منها رائحة الأرض. من الصباح حتى المساء، يهتاج الناس. إنه الإيقاع الحيوي، الأحق، البطيء، الذي لا يتوقف الذكور منهم. يبدو أشبه بـ «ثنية» واضحة في الجبهة، تجري بلا توقف من داخل الحظيرة، من المسبك حتى المستودع، ومن المنضدة إلى الكهف، ومن البقالة إلى صوامع الشوفان، أما الإناث الشبيهات بالنمل العنيد فهن يشكلن معًا مكوكًا، من البيضة إلى الفرخة، ومن الفرن إلى الغسيل، تصدر عشر حركات بشكل ضروري. دون أن تأخذ في الاعتبار معنى ما تفعله ولا أن تأخذ ساعة من الفراغ الحقيقي. يسرع كل شيء، كأنما أمر مهيب مائل من أجل الحركة دليل الحياة. وكأنهن سيصلون إلى المحطة النهائية في سباق. لم تكن هناك ثانية يمكن ضياعها. مثل الخبز الذي لا يحصل عليه المرء إلا بقدر ما بذل من العرق.

في اللحظة التي عبر فيها «جوانيو» الميدان، هبت ريح مفاجئة، وقد نثرت زعايب من التراب بلغت أسقف الكنيسة ضاربة النوافذ والأبواب، واصطبغت السماء بلون الرصاص، وبدت مهمات شديدة الوضوح.

- «أشعل مصباحك يا «فرديناند»، فهذا سيفسد كل شيء!».

هكذا نصح «جوانيو» الحلاق الذي كان يتأمل الأفق من فوق عتبة محله الخاوي.

أعلنت السيدة «بوس» التي كانت تمر وهي تجري «.. سوف تمطر».

أمام المكتب، قابل ساعي البريد رجلاً ضخماً، شديد الحمرة يهتمهم، وقد تدثر بمعطف أسود، وحذاء جلدي كبير. إنه «كوفان» خيال المائة.

قال له وهو ينطلق:

- «هل أنت مجنون يا كابتن؟! اجر بسرعة! ألم تسمع الأخبار؟
«فلامار» قتل زوجته!».

توقف «كوفان» لتوه، وشحبت وجنتاه مثل دهن الخنزير. وانفجر البرق وسط الصمت، نظر «جوانيو» إلى وجهه وقال مازحاً:
- «لا تعكر دمك، يا غبي.. إنها مزحة.. الآن أعرفك، أريد أن أعرفه».

أدار له ظهره، وأعار إلى كلبه إحساسه بالشبع، وزرر رابطته كي يمر حسب روايته ففي كل صباح، يقوم بجولة، ويدخل منزل العمدة لمقابلة السيدة «أرنالدون».

تحت لواء علم الجمهورية، راح العمدة يتحرك ذهاباً وجيئة في مكتبه، الغليون بين الأسنان بينما جلس السيد «إنبرج» الذي انتهى فصله في مكتبه، وهو يمارس العمل الحالي.

- «لنختصر.. ولا داعي للكلام المنمق.. أنا لا أخضع قط إلا للسلطة الرسمية التي تحاول ممارسة الضغط ضد ممثلي البلدية.. بازدرء المبادئ الدائمة للتصويت الشعبي.. سوف يرون في الولاية، بأية غابة أذفئ نفسي! سننظر غدًا في هذا الأمر.. أعطني مكانك يا صغيري، وسوف أوقع كل الأوراق القديمة».

كان يتكلم بسرعة، وهو يمزق الأوراق الأقل أهمية كافة «لنكن واضحين في العمل»، «إلى الهدف»، «ليس الكثير من الكلام والثرثرة!».

كانت هناك أكليشيات أخرى مليئة بالطاقة، تؤكد أن السيد «أرنالدو» قيادي يعرف إلى أين يذهب، وما الشيء الذي لا يمشي في الاتجاهات الأربعة.

إنه رجل يقترب من الحلقة السادسة، يخلو تمامًا من الشعر، له ملامح عادية، له قامة ثعبان الغابة، العينان زرقاوان، النظرة حادة، بلا عمق، والشارب مقصوص يكشف عن فم منسق مثل حُق النقود، لا تعبر تجاعيد هذا الوجه سوى عن جفاف: جفاف أشخاص لم يتحققوا سوى في طموحهم البالغ.

وقف السكرتير ومرر الأوراق الواحدة وراء الأخرى تحت قلم العمدة وفوق كل ورقة يتم توقيعها، يضع بشكل آلي خاتم العمودية، فكر بوضوح أن مضاعفة الأعمال الإدارية تزيد الأعباء الاجتماعية

يومًا وراء يوم أكثر من نظام مدفون في بيروقراطية فاشلة. لكن هذه أفكار يحتفظ بها دائمًا لنفسه، فقد أقسم السيد «أرنولدون» منذ فترة طويلة بأعماله. إنه يعرف أن هذه الحصانة الرسمية، وهذه الشرعية الخصبة بلا أسانيد ولا جذور، أو سمات واضحة، وبلا حقوق، تتضاد حسب طبيعته الوظيفية كسكرتير للعمدة. إنه ساكت دومًا وخجول يشمئز مما يفعله، لكنه يعاني، احتفظ «إنبرج» بقلب شاب مناضل، يؤمن، بكل روحه وبكرامة الإنسان، وبالمساواة العامة للمواطنين، والتحية الواجبة في النهاية لانتصار الديمقراطية العلمانية، على حكم الشعب، وحق الإنسان في التفكير بحرية، وفي حكم الذات، والدفاع النضالي بلا توقف، ضد نظام قديم مستعد دومًا إلى العودة تحت الادعاءات الجمهورية للأحزاب الرأسمالية. إنها نفس العبارات التي يكررها السيد «أرنالدون» بشكل دائم. وهي بالنسبة لـ «إنبرج» الجروح الحقيقية. إنه لا يغتفر لـ «أرنالدون» أن لديه مفهومًا دائمًا لفكرة سياسية. إن «إنبرج» سوف يموت ذات يوم فوق متاريس حرب أهلية.

لم يشك «أرنالدون» قط في مشاعر سكرتيره، رغم أن «جوانيو»، في مرات عديدة، وهو يفتح الخطابات، قال له:

- سيدي العمدة، أخبرتك أن دائمًا سكرتيرك «إنبرج»، ليس رجلًا بارد المزاج فقط، بل رجلًا مزيفًا.

وجبة الظهر

فوق القطع الحجرية الضخمة التي تغوص بصمت
في التراب، تنمو أشجار الكستناء، التي ضربتها
الرياح مخلفة أوراقها الحمراء في الجو المكفهر.

16

وأسرع ساعي البريد عائدًا لتناول الغداء.

أحضرت «لاميلي» الطبق، وجلس «جوانيو» أمام الجاتوه.

تكوم فوق مقعده، وقد مس ذقنه الطبق، والجبهة الصلدة
والعينان نصفًا المغلقتين في رموشهما، دون أن يقول كلمة واحدة،
بدون أي تداخل يبدو متوائماً مع كل شيء، حتى مع مطر الإعصار
الذي يضرب الزجاج الآن، راح يخضع ويفكر في خدعها. إنه
ينظر إلى العناكب التي تعشش في الصومعة، قابعة لأيام عديدة في
مركز السقف، ساكنة، لا تتحرك مستعدة للإفلات عند أقل محاولة
لاصطيادها.

تسكن «لاميلي» هذا العالم الساكن، في مسكنها، هذا الثرثار،
الذي غزت ثرثرته ثقة البلد كله، ولا يفتح فمه سوى للأكل،

وللشرب، وللتكرع، وتجلس قبالتة، وهي أيضًا تؤدي أعمالها الصغيرة، وتغمس في الطبق بلا شهية ملموسة. وبطرف عينيها ترقب رجلها، كي تمرر له - في اللحظة المناسبة - المشروب أو كسرات الخبز، منتبهة بشكل غريزي لكل شيء يخدم واجبها كزوجة.

انفجر الرعد، بالغ القسوة، مما يجعل المرء يقفز من مكانه، فيرتجُّ الزجاج في أماكنه، ارتعدت «لاميلي»، وهمست في صمت:

- «لعلها تمطر في مكان بعيد».

خاب ظنها، فالريح توقفت فجأة، وما لبث المطر أن هطل.

شرب قهوته، وقبل أن يعود إلى المحطة، صعد ساعي البريد إلى غرفته، وأغلق بابه لينام قيلولته. من النادر أن يتأخر في النوم على سريرته، فهي الساعة التي يجب ألا يزعجه فيها أحد، يجب أن يسخن قليلاً من الماء عن طريق مصباح السبرتو، وبأصابعه الضخمة ذوات الأظافر الصفراء، تصفح من الخارج المظاريف التي يهيمه أمرها.

لم يكن الصيد سيئاً اليوم، في الصندوق رسالة موجهة إلى «كوفان» والذي أكد على خيانة توصل إليها «جوانيو» منذ عدة أشهر، سيكون العمدة سعيداً.

لكن رغم هذه النعمة، فإن ساعي البريد ظل شاردًا، ممددًا فوق السرير، وقد ركز عينيه نحو السقف، يحلم بالأشياء الرخيصة البوهيمية الصغيرة، مع مداعبات شمس بيضاء، ومن أسفل، تبدو ذراع السيدة «فلامار» البيضاء، تشعل فيه نيرانًا أشبه بالجمرة تحت الرماد، تكفيه محاولة.. ورغم محاولته الصغيرة، قامت «لاميلي» بإعداد طعامه، وسكبت له القهوة. وأحس «جوانيو» أسفل ركبتيه بحفيف التنورة. ألقى ذراعه حول ردفها المكتنزين اللذين يعرفهما أفضل من جسده وبحركة وقحة جذب المرأة نحوه وعانقها، ولكن «لاميلي» تخلصت منه برقة:

- «أنت مجنونة، أليس كذلك؟ لقد دفنت يداي قليلًا!».

ضحك وهو يراها غاضبة، ولحق عصيره دون أن يقول شيئًا.

في الساعة الواحدة ظهرًا، وضع «جوانيو» الكاب فوق رأسه ثانية، ثم قام، كي يلحق بقطار الواحدة والنصف.

لقد حان الموعد، رغم كل شيء، الإعصار وريخات مطر قصير للغاية، تضربها الأتربة والجو، وللحظة استعاد بكارته، وبسرعة عاد مخترقًا المقابر، حيث يلمع الجرانيت الأزرق تحت الشمس.

وفجأة، توقف «جوانيو» بدراجه كي يمسح جبهته، ها هي الجمرة الصغيرة المخفية، التي تشتعل فجأة، وتضيء جسد ساعي

البريد الضخم الساكن في طرف الطريق، هناك، بعيدًا عند أول الطريق المؤدي إلى غابة «لوران» كوخ أحمر اختفى لتوه في ممر به أشجار. هذا الكوخ هو لـ «فليبيرت» الذي راح يبحث عن مؤونته في الغابة الجافة. ردد «جوانيو»:

- «حسنًا». وهو يتجه نحو المحطة:

- «العمل قبل كل شيء».

رئيس المحطة

عند المنحنى، أسفل الردم، نلاحظ هناك بأعلى،
ونحن نجتاز فتحة الرصيف التي تبعد عن رئيس
المحطة بمئة خطوة، رجل يمكن أن نميزه عن بعد
بشكله المألوف من الأمام وهيكله
النحيف الأشبه بـ«دون كيشوت»، لكنه ليس سوى «دون كيشوت»
عجوز محني، وليس لديه شيء يقوم بغزوه.

نادى على ساعي البريد.

- «أليس هناك شيء من أجلي هذ الصباح؟».

أجاب «جوانيو» بقوة، وهو يرتب حزمة أوراقه:

- «بلى».

ضحك تحت شاربه الكثيف. إنه يعرف جيداً ما ينتظره «رئيس»
المحطة منذ أسبوعين. هذا المظروف الرسمي الأصفر، كتبه
شخص أعسر، بدا له مشبوهاً. في اليوم الذي رفعه من صندوق
المحطة. مشبوّه، كان عليه أن يقرأه قبل أن يرسله: بذمتي، سوف
يكون أحد الأشياء المثيرة للدهشة والفرحة في حياته.

تقدم رئيس المحطة متعجلاً.

قال «جوانيو»، وهو غير متعجل في أمره، وهو يسحب الخطاب البلجيكي من جيبه:

- «لا شيء آخر؟»

نظر العجوز، محبطاً، إلى الأرض، إنه موقف مألوف بالنسبة له، لكنه ليس خاصاً. وبسبب أنفه الساقط، ورموشه الثقيلة، ولحيته القصيرة، وظهره المحني، فهو دائماً ينظر إلى الأرض أكثر من غيرها.

قال «جوانيو» متنهداً:

- «هيا، أيها الرئيس، هذا يعني أن المعاش اقترب».

أجاب الرئيس بهزة من رأسه المراوغة، ووضع المظروف أسفل شريط قلنسوته وعاد من حيث أتى بخطى واسعة.

انحنى «جوانيو» يميناً ناحية ورش المصابيح حيث التقى «فلامار» الذي يدخن غليونه، وقد غرق في عرقه وهو ينتظر القطار. بادر «جوانيو».

- «أخبرتك أن الجو حار على الطريق».

لم يكن الرجل يميل إلى الرد وأخذ يملأ زجاجته.

- «هل رأيت؟ هل تكلمت إليه؟».

جفف «جوانيو» عنقه، وجلس مبتسمًا، وضم يده اليمنى بشكل غريزي، حول دودة تتحرك، فمنذ أن دخل، وهو يفكر في شقة السيدة «فلامار». إنه ينظر الآن إلى العملاق وقد انتابته أفكار مسلية.

- «لقد رأيتها، نعم.. يتكلمون عنها.. بالمعنى. أنت تعرف أنها ليست مخطئة.. كلها أفكار مزيفة».

نفث «فلامار» الأشبه بثور هائج، تحت المايوه الملتصق بجسده، وارتفعت صدريته ثم سقطت كأنها امرأة تنهد، وفجأة، قبض على يديه ومد أنفه:

- «لم أقل إنها مخطئة يا غبي! ولكن من الغباء أن يكون المرء مغفلًا!»

تبادل الرجلان نظرات صامتة، ثم غرق كلاهما في بحر من الأفكار المحددة.

ردد ساعي البريد أخيرًا:

- «التقود هي التقود».

في ركن من مكتبة، خلف نافذته المغلقة، جلس رئيس المحطة يتأمل الأرضية بين فردي حذائه الضخمين المتبعدين.

نعم، خلال شهرين سوف يحال إلى المعاش، وسيأتي رئيس محطة جديد للجلوس هنا، وسوف يتعد عن امتلاك كل شيء، ترى أين سيذهب؟

إنه يملك ناصية الأمور هنا منذ ثلاثين عامًا، ثلاثون سنة بلا خطة محددة، ثلاثون عامًا بلا خطأ كتابي واحد، والآن، المعاش، لا يمكن الهروب منه سوى بالموت.

ها هي وظيفته تنتهي، وجوده كرئيس محطة، ليس هذا بالشيء الجسيم، ولكنه وجود أرادته نموذجًا بالنسبة له، فهو طيلة الثلاثين سنة، لم يلجأ إلى أساليب البهجة إلا المحطة التي رآها واجبه، حيث ظل يناضل بشكل بطولي ضد العادات السيئة كافة التي يقع فيها الناس. لا تدخين، ولا عشيقات، ولا حتى زوجة شرعية. (ما أن تتسلم القيادة يجب عليك، كي تمارسها، أن تظهر كشخص لا يحتكم للعواطف، وألا تبدي أي نوع من الضعف). والأمران الوحيدان اللذان اهتم بهما على المستوى الذهني، هما: هواية جمع الطوابع، ومكتبته، وبين مواعدي كل قطارين فإنه يتفحص ألبومه، وأيضًا أحد الأربعة عشر جزءًا المجلدة التي منحها إياه أبوه الروحي. عاشق المسرح، إنها الأعمال الكاملة للكاتب «سكريب». وبعيدًا عن هذا فإنه يضحى بكل شيء: فهو «رئيس» محطة مثالي. واليوم، وهو على أعتاب أن يترك كل شيء وأن يدفن نفسه حيًا، فإن الرضاء بأنه قام بالعمل يكفيه،

ولا يتبعه أي تعويض في بأسه.

في الخارج راح جرس الإنذار يقرع بحذر. القطار رقم 209 ليس بعيد. ولحسن الحظ فإن خدماته موجودة. بدون أي متاعب.

ارتدى «الرئيس» قلنسوته.. وخرج إلى الرصيف. ربما أن هناك شيئًا ما عليه أن ينجزه، المرور، الركاب! ولكن كان رصيف «رئيس» المحطة خاليًا تمامًا.

رأس «جوانيو» يتطلع من وراء زجاج مصنع المصابيح الشفاف إلى «رئيس» المحطة يمر، وقد انعكس منه ضوء ساخر يشتعل وينطفئ بين أهدابه.

فكر في الإعلان الذي أرسله العجوز، منذ خمسة عشر يومًا إلى «الجريدة الصغيرة» «السيد. بالتأ، س، أعز، اقتصا. معاش، السر.. ودود. يرغب في السعا. والنس، جا. وغب، وقادر، لطيف ورقيق. يكتب يوميًا. بطاقته 349. سجل».

المقصود بالجملة الأخيرة، إنها مكتوبة بشكل اختزالي وترجمتها الكاملة: (السيد: بالتأكيد عمره ستون عامًا، وهو أعزب، واقتصادي. وقصير، وعلى المعاش، ودود، ويرغب في أن يكون سعيدًا، وهو جاد، وقادر، وجذاب، ورقيق، اكتب بيانات على رقم 0349 بالبريد المسجل).

عائلة فيليبرت - الصيادون في الطابور

خرج «جوانيو» من المحطة، ولم لا؟ ووطأ بقدمه فوق الدرب، والمؤخرة ملتصقة وراح يلف سيجارة قبل أن يدفع دراجته. وهو يفكر، في أن عليه التوجه إلى غابة «لوران».

18

«فيليبرت» اسم شجرة زيتون أسود صغيرة تنمو في وسط فرنسا، هي نحيفة والثمار قليلة وليست جميلة جداً، لكنها مليئة بالطاقة مثل الماعز. تسود خضرتها البلد طيلة الصيف. القدم حافية، ورغم شدة الحرارة، فإنها لا تترك خمارها الأحمر المعقود في شكل مثلث، أسفل ذقنها.

كما يبدو، فإنها ليست هنا، لقد نقلوها إلى «موبيرو» بواسطة شباب القرية المجندين، الذين أرسلوها لأداء الخدمة العسكرية في «ناريون». مات الشاب بدون أن يصرخ منذ عامين وهذه مأساة فتاتين في مقتبل العمر. من المستحيل أن يذهب للتنزه عند الآخرين. بسبب هاتين الصغيرتين. تسكن أسرة «فيليبرت» في

كوخ من الطين، يقع فوق أرض وحلاء تنتمي إلى المجلس البلدي، وهي تعيش حسب المصادفات حيث تربط المرأة الغلمان وتذهب لتجمع الخشب الميت.

يعرف «جوانيو» كيف يصل إليهم، عندما تتابه الرغبة في ذلك. فهو يسلك درب الأشجار ويتصرف كأنه في حالة صيد، إنه لا يسير طويلاً حتى يصل. تتبعه الفتاة «دوسيل» دون أن ترسم على محياها ابتسامة الاستقبال.. تتبعه في داخل الدغل الكثيف، تنقصها أشياء تمارسها ضد إرادتها ولكن لو خيروه، فيمكنه طرد الأسرة من كوخها، عن طريق العمدة، ثم إنه يلزمه عشرون أو ثلاثون قرشاً. كمكسب سريع. ثلاثون قرشاً. ثمن خبز يكفي يومين. ترى هل يستلزم ذلك حكايات، لن يستغرق الأمر سوى بعض الوقت.

عندما سيصبح الغلمان كباراً. يمكن لأسرة «فيليرت» أن ترسلهما إلى المدرسة. وتستأجر من أجل الغسيل. لديهم الكثير من المتاعب الآن، في العثور على نساء يقمن بالغسيل. إذن ففي خلال ستة أشهر، سوف تقترض مبلغاً يجعلها تقيم في «روباني» القريبة من «ناربون»!

ففي «روباني» لديها عمه عاجزة.. وهي تحلم أن تنام كل مساء في «روباني». حيث الناس - كما أقسم لك - ليسوا مثل أقرانهم هنا.

ومن أعلى المكان، وهو عائد، رأى ثلاثهم، عند طرف الماء، وقد انحنى كل منهم بين شجر الصفصاف: إنهم كسالى القرية الثلاثة، ثلاثة من جرحى الحرب، الذين أسماهم السيد «أرنالدون» في خطبته «أبطالنا» «باسكالون» و«تول»، و«هوستين».

ترك «جوانيو» حقييته عند طرف الكوبري، واقترب في صمت من الصيادين الثلاثة. يبدوون بالغي الجمال في كل مرة يلتقون معاً. تجمعهم دوماً قوى سرية في الركن نفسه من المكان، وعلى المائدة نفسها في المقهى، وتحت الشجرة نفسها من المزرعة.



«بسكالون» يعرج، خاصة عندما يمر من القرية، إنه الأقل تقاعداً، والأقل كسلا في الثلاثة. إنه حفار وإسكاف يعرف كيف يستفيد من عودته إلى البلد منذ العام الأول في الحرب: ففي الأمسية الاحتفالية لاستقباله التي أقامها العمدة. تم تعيينه حارساً عاماً للمقابر وسكن هناك في غرفة واسعة وارقة الظلال بأشجار الصفصاف وعاش وحيداً. ولكن خصومه الثلاثة أرامل الحرب الثلاث زعمن أنه يدخل إلى مسكنه ليلاً، أشياء غير جنائزية. ولم يعر «بسكالون» هذه الحكايات أية أذن، وهو يمزح، ففي النهار، عندما يكون الجو لطيفاً، وعندما يتنسم الأعرج سمة العمال يظل أسفل ظل الكنيسة ويتذكر مهنته القديمة في الزمن الذي كان يكسب فيه قوته، يجمع الأحذية الكبيرة، ويلم الجراميق القديمة مما يشبع طيشه. إنه قصير

ليست له شعرة واحدة في وجهه الدائري والوردي، تلمع سرجتان متباعدتان. وعندما لا يكون في المقبرة أو الكنيسة، يشاهد في المقهى، يقدم له كل الزبائن الكؤوس، فكيف يقاومون سحره، وهو يدور مترنحًا حول الموائد، يرمش بعينه ويطلق بصوته الساخر:

«صباح الخير يا زملاء! أليس لديكم كأس؟»

أما «تول» فهو أكتع في ذراعه اليمنى، وهذا لا يمنعه من الصيد بالصنارة، لكنه يعوقه في العمل. فرنسا، وأخته السيدة «بوس» زوجة صاحب المطعم، تقومان بتغذيته، إنه يسكن المقهى، يستيقظ عند الظهر. ويسلك طريق «لابورس»، وفي يوم الأحد، يجلس على المائدة. ويبدو كأنه يساعدهم في العمل. أكثر ما يفعله هو العزف على البيانو الآلي. والأهم هو أن يحصد المزيد من النقود التي تلزمه في دخول المرقص بالإضافة إلى تدبير ثمن تبغ الأسبوع، أما بالنسبة لنقود الدولة؛ فإنه يدرها لنفسه. أما الثالث، «هوستين» فقد أصيب بالتسمم وهو الأشد حمية؛ لأنه ظل محتفظًا بالزكام، وهو عملاق أشقر، فاطر الهمة، ووجنتاه مغطتان دومًا بالزغب الخفيف، يمشي فاغر الصدر لا يكف عن السعال، أو التشنج (كما تقول أرمالات الحرب)، إنه يغالب الزمن حيث عليه أن يتمثل طيلة الشهور باحثًا عن استشارة. لقد ظلت زوجته التي غادرت القرية أثناء الحرب تبيع أثاث المنزل، وعندما عاد لم يجد سوى البيت وكلبه «جاريالدي»، كلب أصفر وأشعث مثل سيده. كلب سيرك حقيقي له العديد من

المزايا. ففي المساء يقوم «هوستين» معه بجولة في المكان.

تصاعدت روائح منعشة قريباً من الأماكن الرطبة بين البوص والنهر الصافي الذي يجري في مصبه، ويبدو في تدفقه داكنًا متقاطعًا مع الأعشاب الطويلة، والأمشاط بالغة الوفرة.

- «خرجت سمكة واحدة فقط». نفخ «تول»:

- «اسكت».

همس «باسكالون»:

- «تعض أكثر من الناموس!».

كان «هوستين» بعيداً شيئاً ما عنهما، وقد استند على جذع الصفصاف وبشكل غريزي، فقد اختار المكان الأكثر ملاءمة. حيث منعطف النهر، وحيث تراكم الزبد مشكلاً كتلاً أشبه بالبور، وقد غاصت قدماء الحافيتان في المياه الجارية رغم دكتهما. غلبه النعاس. ولحسن الحظ، كان «جاريالدي» جالساً خلفه، وجردل معلق قريباً منه، وهو يرقب القنينة.

وقف «جوانيو» قريباً من تجمعات الناموس التي راحت تقترب من أذنه، ثم تطلع إلى جريان المياه لحظة.

استدار «باسكالون» نحوه، وهو يتسهم ملء شذقه:

- «ألا يوجد معك كأس؟».

ماري - چان أرنالدون - «جوانيو» عند العمدة

وصل «جوانيو» أمام منزل العمدة، تطلع عند مفترق طرق مفتوح نحو الدور الأول. حيث تنساب نغمات موسيقية خفيفة كأنها صادرة من حلقة مفاتيح تسقط أرضاً فيصل صداها حتى الشارع.

19

قرع «جوانيو» الجرس، توقف النغم الموسيقى في الحال وظهرت الأنسة «أرنالدون» في النافذة، إنها على وشك أن تبلغ الثلاثين، عانس لها شخصيتها، ابتسمت إلى ساعي البريد، وكأنها تتوسم فيه أن يأتي إليها بما يسعدها.

- «صباح الخير يا سيد «جوانيو».. إني قادمة».

ظل السيد «أرنالدون» أرملة منذ فترة، «ماري چان» هي ابنته الثانية، الوحيدة التي تعيش على مقربة منه.

هناك بين الشقيقتين ما يمكن تسميته في «موبيرو» بسعادة العالم، وفي الواقع فإنهما لا يفتقدان ألبته هذه السعادة.

منذ حادثة سنهما، فإنهما محظوظتان، لقد أقامتا في سكن داخلي في المدينة الكبيرة، من أجل الحصول على تعليم خاص،

يفيدهما طيلة حياتهما، ثم عادتا إلى «موييرو» في ربيع عمرها في انتظار الزواج. إنهما تعيشان وجودًا بلا تجارب. تحت رقابة العمّة «نومي» الطيبة القلب، المعجوز العزباء التي تسكن وحدها عند الجناح الثاني للمنزل القديم.

مرت السنون، السنة وراء الأخرى، وهاتان الأنستان قد قصتا شعريهما منذ مدة طويلة على طريقة سانت كاترين، بينما انتابت الكبرى مشاعر الخوف غير المباح أن تصيها الشيخوخة دون أن تحصل على زوج، أو أطفال مثل العمّة «نومي» التي اضطرت أن تتزوج من رجل في مثل عمر أبيها، مزارع بدين من «بورج - إيلوا». ظل أرمل مع ابنة غير متزوجة.. استأنفت حياتها هناك سعيدة، كامرأة مرغوبة. تكد من الصباح حتى المساء في مزرعتها. بين هذا المعجوز المتعفن، وهذه الابنة الغيورة التي لم تغفر لها دخولها حياتهما. يجب أن يكون هناك شيء تشكو منه، يئست «تيريزا» من الحصول على زوج حقيقي لم يبلغ الكهولة حتى تأمل أن تنجب أطفالاً.

كانت الحكمة المثالية لأختها، قد دفعت «ماري جان» إلى البحث أيضًا عن السعادة في الزواج، مؤكدة ذاتيتها كعانس. تحس بالمهام الأسرية لكنها عنست بشكل إيجابي، كما يردد الجيران. فهي سهوانية ولا تعرف كيف تقاوم غرائزها قط، وهكذا بعد أن حلمت طوال طفولتها بدراسة الموسيقى، إلا أنها لم تمارس الإيقاع في الكنيسة حتى تكرر الموقف السياسي لأبيها، قررت السيدة

«أرنالدون» أن تشتري لها بيانو ظل قابلاً في مكان منذ عدة أجيال. تحت غطاء مزدوج من الكرتون والأتربة في صالة السيدة «ماسو» آلة ثمينة تصدر صوتاً حقيقياً، ولكن الأصوات الجهيرة لها طابع جيد أقرب إلى الإيقاع الصيني. كان «المذرون» العجوز من المدينة الكبرى، ضريراً، يتمتع بشهرة كموسيقي نمطي واستطاع أن ينقل إليها شيئاً فشيئاً أغلب ملاحظاته، ومن أجل استكمال عمله الجيد، كان يعطي مرة كل أسبوعين درساً لـ «ماري چان»، وصار السفر إلى المدينة بالنسبة للعانس، فرحة نصف شهرية، تعد لها نفسها مسبقاً، وهي تتأهب لدرس الموسيقى. تنظف قفازاتها بالبنزين وتحفظ بطبيعة بالغة الحيوية، وفي كل مرة تقضي الفتاة ليلتها بلا نوم، تمر أمام عينيها مشاهد للأشياء الأكثر وردية والمألوفة، ولكن، يا إلهي إن بذرة الجنون وحدها تعطي للحياة طعمًا.. والجيران.. ليسوا على خطأ. فمهما بدت جادة، فإن «ماري چان» تحب متعتها.

لا يسكن «أرنالدون» سوى في غرفة بالدور الأرضي: صالة طعام. وعندما لا يمارس الجري وهو عاقد يديه حول صدره، فإنه يجلس هناك أمام المائدة، التي لم تعد كصالة للخدمة أبداً، حيث تتجاوز الملفات إلى جانب الأطباق القذرة وصحائف الزبد، وخليقة الخبز، كل شيء كما هو. «أرنالدون» هو أول من يأكل في الناحية.. وبما أنه في الإدارة، ودائماً ما يصوم ساعتين. عشر مرات

يومياً، يفتح الباب ويصرخ على السلم: «ماري جان»، أريد أن أكل. وكالعادة، فإن «ماري جان» تصل ومعها بيضتان موضوعتان في إناء طهي البيض، أو طبق لحم بارد، أو جبن ماعز مدموك أحياناً بالرماد.

لكن، ليس هذا سوى وجبة خفيفة يجب أن يراها العمدة، في بداية كل وجبة، بينما تضع ابنته الإفطار، وهو واقف وقبل أن يجلس يطلب طبقاً من لحم الخنزير المفروم بالخضرة يوضع فوق شرائح الخبز الطازج، مغترفة من الأرض والغابة. المعجزة هي أنه لا يسبب أي ضرر رغم احتفائه أثناء الهضم، ويخرج من المائدة عندما تفرغ الأطباق. يشرب فنجاناً مليئاً بالقهوة، وكأسين من كونيالك، ويشعل غليونه، ويتجه إلى غرفته، ويعود إلى أعماله، وقد تهيأ إلى ابتلاع بيضة بكاملها.

عند دخول ساعي البريد وضع السيد «أرنالدون» جريدته، ورفع رأسه:

- «أخبرني يا «جوانيو».. هل أنت مستعد للحضور معي.. مكتب الشرطة جاءته رسالة تخص احتفالات عيد الفصح: يريدون وضع العجوز تحت الحراسة أخبرني الشرطي أنه سوف ينزل على الفور إلى «مولان بلان».

كانت للعمدة دائماً طريقة مبتسرة في الكلام، ليست لها مثل في البلدة رد ساعي البريد وهو يجلس:

- «سوف تمزح».

- «البلاغ مقدم منه. لكن هذا لا يهم».

- «وأنت يا «جوانيو»، ما الجديد؟».

همهم ساعي البريد، الذي أبدى ما يعتمل به:

- «إيه.. سوف تقول إنني أثرر، سيدي العمدة.. انتبه من خيال

المآة: فإن به خصلة من سماتك».

هز السيد «أرنالدون» كتفيه:

- «ما دمت لن تأتي لي بإثبات!».

أخذ «جوانيو» من فوق المائدة علبة التبغ، ووضعها بين ركبتيه،

ودون أن يضغط عليها، لف سيجارة رفيعة، تم سحب ورقة من جيبه،

وبكل هدوء:

- «إثبات؟.. ها هو».

وراح السيد «أرنالدون» يقرأ بصوت خفيض:

- السيد «كوفان»..

.. في «موبيرو»..

«كلفني السيد «بيل» أن أذكرك بحصولك على معلومات مؤكدة

وجهتها له في رسالتك المؤرخة في 22 الحالي، والتي ستكون

محددة بالنسبة له أثناء حملته الانتخابية. وطلب مني أن أنقل لك شكره وكل مشاعره بالمودة».

«سكرتير اللجنة الوطنية»..

«فابر»

راح «جوانيو» يرقب العمدة بطرف عينيه، وانتظر منه مديحًا، لكن «أرنالدون» وضع الورقة فوق المائدة، وقال بغلظة:

«ليست هذه هي الرسالة التي يجب أن نحتفظ بها يا «جوانيو»، ولكنها الرسالة اثنان وعشرون».

ولم ينزعج «جوانيو»:

- «صبرًا.. لديّ زميل في المجموعة الأخرى، وهو فوق الأثر».

هذه المرة، عبّر السيد «أرنالدون» عمّا ينتابه وهو يهز رأسه.

علق ساعي البريد حقيبتيه، ومد ذراعه، حتى يلمس بأصابعه طرف المائدة.

- «ليس هذا يا حضرة العمدة، الأمر يتعلق بالتفكير قليلاً فيّ. فأنا في حاجة لنقود».

- «أيضًا؟!».

- «أيضاً! لم أقبض مليماً منذ شهر يونيه، يجب أن أفهم أشياء، أنت ترى أنني لا أتاخر بمتاعبي، وبلا غرور، وأني أعمل باخلاص لانتخابك. ولكن كل وقتي يمر. ولا أجد ساعة في يومي كي أعني بحدقتي، ويجب أن نشترى لـ«لاميلي» كل خضراواتنا، فالحياة غالية، بيتي خالٍ من النيذ، فهل يجب أن تلزمني نصف قطعة قبل قطف العنب وكل ما هو مقدم؟».

نظر العمدة إلى ساعي البريد وهو يتكلم، والأهداب ترتجف والشفاه فاعرة، سحب من غليونه بعض الأنفاس زفرها كالرصاص. وأطلق «جوانيو» النفحات الأخيرة:

- «لو أردت أن أكسب أكثر. فليست عندي سوى كلمة لأقولها حتى أحقق تقدماً. وأنا عندي الحق، ولكن، ما دمت أستطيع العيش هنا، وما دمت مفيداً لبلدي، فسوف أظل في «مويرو». فقط، أنا في حاجة للمساعدة.. يجب أن نفهم الأشياء، يا حضرة العمدة».

ودون أن يرد، أخرج السيد «أرنالدون» حافظته من جيبه وفرد تذكرة عرضها على المائدة المربعة.

كان أمام «جوانيو» بعض اللحظات كي يمد له يده، ويعبر عن شكره، إنه من الغباء، إذا كان هو الرئيس المسؤول مهما كان منه في كل الظروف، ففي كل مرة يتلقى النقود، يقفز الدم من حنجرتة، وهذا أمر يثيره كل لحظة، كان أشبه بشخص أصابته صاعقة.

مدام سيكاني - مدام جوديه - مدام توش، أرامل الحرب

صاح «جوانيو»:

20

- «سيدة «سيكاني» لديّ أخبار من قديسك
المبتدئ».

«أوجستين سيكاني» خريجة المدرسة الإكليريكية
الأسقفية.

جمّلت السيدة سيكاني «شفتيها» وأمسكت الرسالة بنظرة مليئة
بالشكوك.

وأسرع ساعي البريد بترتيب الأمور:

- «خطة جميلة» طفل الكنيسة، ولن أقول غير ذلك!

صاحت كل من السيدة «جوديه» والسيدة «توش» معًا:

- «بالتأكيد!».

كل أيام الله الحلوة، صباحًا ومساءً تلتقي السيدة «جوديه»
والسيدة «توش» في منزل السيدة «سيكاني» للعمل. هن ثالث
أرامل الحرب. متقاربات في السن. كل منهن كانت لديها ابن كبير

شهيد الوطن. كما تربطهن أشياء أخرى: فساتينهن السوداء ورعبهن وثرثرتهن ومشاعرهن بالمرارة تجاه أزواجهن الراحلين، ومشاعر الحقد الكامنة حول الرجال الذين ضاعوا في الحرب وادعاءاتهن بالإحالة إلى المعاش، وعفة الكبرياء التي تنخر في أدمغتهن بعد أن ضمرت أجسادهن.

تسع أو عشر ساعات يوميًا، يعكفن على حياكة الحقائق الكتانية الخشنة، التي تستفيد منها مصانع المدينة الكبيرة. عمل شاق يدمي الأصابع ويشير القصبه الهوائية مقابل سعر زهيد، لكنه عمل يتم في البيت، ما دام مطلوبًا حيث يحرص العمدة أن يحصل على نصيبه؛ لذا فهن يرتجفن كل أسبوع كمن يقمن بفك الرهن.

السيدة «توش» شخصية لها وزنها، ذات وجنتين تشبهان اللحم النيئ. حاصلة على شهادة لا بأس بها، تجيد التعبير عن نفسها باختصار، وتعطي النصائح في وقتها، وتوخز بالإبر وتقدم المعلومات الطبية. وضعت ابنها عند طبيب في المدينة الكبيرة، عليها تدبير المنقوع المغلي، والمراهم لاحتمال ظهور مرض في القرية. تطير السيدة «توش» وهي نائمة فوق مخدتها خاصة - مثلما يقول الأشرار - إذا كان هناك رجل، تتعري وتبرطم وتدعك يديها، وتنكشف وتهتم بتدليك البطون وعمل كاسات على الصدور

والمصاص فوق ثنيات الفخذ وتستطيع سبر غور المئات الكسولة. وتظل مشاعرها بالامتنان حتى لو كانت مريضة، تحضر بشكل تطوعي المعاناة، وتأهب دومًا للحظة الموت. وتقدم توصيات محدودة للشباب الصغار. وترقب الأزواج متدفقي الخصوبة والعطاء دون أن يشعر أحد. تتواصل معهم حسب الحالة، وتقدم لهم بعض الكتالوجات التي تقوم بثنيها وترسلها مع البريد دون أن تشك أن «جوانيو» يتصفحها قبلها بشكل سري.

أما السيدة «جوديه»، القادمة من «ليونتين» فهي الأصغر سنًا بين الثلاثة، ولا يبدو عليها قط أنها تنسى كم كانت شقراء وحساء. فهي تحمي دومًا بشرتها من الشمس، تعلوها دائرة من الظلال الوردية المطلة حول عينيها المنكسرتين. تركز حياتها حول ابنها، القزم النحيف، الضعيف البنية الذي خصصت من أجله منحة للمدرسة الداخلية في المدينة الكبرى.

وعندما يأتي في إجازة يتجول في القرية في ملابس يوم الأحد، وتوقف الأم أعمالها كافة كي تستفيد من إقامة ابنها ولا تتركه يذهب إلى المقهى مع الآخرين، وتصطحبه بنفسها إلى الحلاق.

وفي عيد الميلاد، أصاب الغلام التهاب شعبي قوي، وأرادت مدام «توش» أن تعني به، لكن أمه لم تترك صديقتها تدخل قط حجرة الشاب مما أغضب السيدة «توش» بشدة وتملكها الرعب

على مشاعر الأمومة للسيدة «جوديه» التي لم تُخَفِ عن أحد أن السيدة «توش» أرادت أن تجرب فضيلة ابنها.

أما مفتاح هذا التجمع، فهي السيدة «سيكاني» ويسبب اسمها، الذي يعني العنق الطويل، فقد سموها «البهجة»، تضع رأسًا حزينا فوق جسمها مطعمًا بالتوترات النبيلة الكثيرة، لاحظت القرية كلها أن مشاعرها تبدو قوية، ومنذ أن التحق ابنها بالكنيسة، فإن أحزان هذه القديسة تضاعفت بشكل تلقائي، وزادت تشققات شفيتها. ببعض العدوانية وكأنها تغني: «لم أبتسم منذ أن صرت أرملة» العينان بالغتا الشحوب وسط بشرة سمراء، رغم أن ماء العينين صاف أو متغير وطريقتهما في النظر حولها تثبت أنه لا يوجد رجل مطلقاً في القرية، ومن بينهم السيد القس، الذي لم يسأل نفسه، على الأقل مرة واحدة، إذا لم تكن السيدة «سيكاني» قد فتننت به. أما المزاح عندها فليس سوى كلمات مواراة، وتنظر إلى الرجال بشهوانية، وبحركة ودودة بالقبعة، تترك نفسها أحياناً - عن طيب خاطر - لذا فهي - أكثر من مرة - تعرضت لمواقف شهوانية.

رغم أن منزل السيدة «سيكاني» صغير، كأنما أصابه الوباء يوماً. فإن «جوانيو» عندما أتاحت له الفرصة أن يغامر قد نبش بمخالبه، ولو كان في إمكانه أكثر، فإنه من خلال المكالمة الودية يمكنه أن

يجري معها ثرثرة ذات فائدة. همست السيدة «توش» التي يبدو أنها جاءت من المدينة الكبيرة بصيبة مثلها:

- «أيام العيد».

وأنهت السيدة «جوديه» الكلام قائلة:

- «من أجل ممارسة أفضل للعمل».

ويدور الحديث - حسب المزاج - عن المستقبل. لكن ساعي البريد لم يمك لتوه أي شيء قادم يأتي بالمال.

استدارت السيدة «توش» نحوه:

- «سيكلمنا السيد «جوانيو»، عنها كثيرًا؛ لو أراد».

- عَمَّن؟

- عن زوجة «فلامار».

باعدت ابتسامة وحشية بين شفتي السيدة «سيكاني»، دون أن ترفع عينيها عن الرسالة، التي تقرؤها. وقالت بشكل محدد:

«نساء مثلها يجب أن يضربن بالكرباج في ساحة الكنيسة. مثلما كان يحدث في زمن الملوك».

ضحك «جوانيو» ساخرًا:

- «سأتكفل بذلك على أكمل وجه».

وحدجت فيه ثلاثة أزواج من العيون كأنها تطلق عليه رصاصة
سريعة!

وتحرك خيب النساء أو الجياد الأربعة التي مرت في الشارع.
- «سوف يعود الجنود».

دقق فيهن ساعي البريد، كشخص يعرف الكثير، ثم جمع حقيبته،
وأسرع يأخذ هدنة.

الجنود عند باكو

21

مربوطة أمام بيت العمدة، جياذ الشرطة، وقد أنهكتها الحرارة، يغلبها النعاس، في ظل شجرة الكستناء توصلت الأخبار بشكل مختصر من أول القرية إلى آخرها: «لقد تم القبض على آل باكو».

ما حدث بين جدران «مولان - بلان». ومنذ أمد طويل أمر غامض، فإن «جوانيو» لم يجتز قط حاجز المزرعة. فإن أسرة «باكو» لديها كلبان معروفان بالنباح التحذيري.

ينتمي الخبر إلى السيدة «باكو» يعرفه الناس جميعًا في القرية، فأثناء الحرب فقد الأب «باكو» ولديه الكبيرين في ساحة الشرف، ثم فقد امرأته، وبقي له ابن في السابعة عشرة، أو الثامنة عشرة، يسمونه «التونكي» وابنة، أصغر سنًا، وقد شوهدا دومًا عن بعد، يزرعان أرضيهما، ويرى دومًا قريبًا منهما طفل صغير في الرابعة، أو الخامسة، جاء إلى الدنيا، بلا شاهد، ذات ليلة شتوية، وأعلن «التونكي».. أنه مجهول الأب، أما بالنسبة للعجوز، فإن أحدًا لم

يره منذ سنوات، بمعنى أنه حتى هذا المساء لم يكن هناك شيء يشير
 القلق حوله، لكن حضور رجل الشرطة قدح المخيلة، فلعل العجوز
 قد تعرض للضغوط وللحظة فإن الشك لم يساور أحدًا، ولكن ترى
 ماذا حدث للجنة؟ هل تم دفنها في ركن من الحقل، أو أحرقت في
 فرنهم القديم؟

وصول الموكب

في المقدمة، ضابط الشرطة، ومعاوناه الاثنان، ثم العمدة،
 والسيد «إنبرج» يصحبهم خيال المآتة وساعي البريد، وعلى
 مسافة مناسبة، هناك أهل القرية، دون تحديد للحزب «هوستين»،
 و«تول»، و«باسكالون»، و«بوس»، و«كيرول»، و«آل مير لافين»،
 و«فرديناند»، و«بويود» الحداد، وكل صبية المدرسة في الخلف،
 وكأنهم في جنازة. ثم تأتي النساء على مسافة بعيدة قليلة، عند آخر
 نقطة من الحراسة. وكأنهم في نزهة غير معدة سلفًا، وشقيقة القس،
 الآنسة «فيرن»، تستند إلى كل من الآنسة «ماسو» و«سلسيتين».

ما أن وطأ رجال الشرطة أرض المزرعة، حتى خرج كلبا
 «باكو» المربوطان في الفناء، بعيدًا عن وكرهما، وقد برزت أنيابهما
 للخارج، وراحا يهزان سلسلتيهما، محدثين ضجة هائلة. عبر
 السياج، شوهد باب المزرعة الضخم ينفتح، وينغلق لتوه. توقف

الموكب، ظهر الضابط، بلا مشاعر وتقدم وحده، نحو الحاجز،
وساح وسط الصمت:

- «هل أنتم هناك يا آل «باكو»؟».

تراكم الكلبان وراحا ينبحان بكل قوتهما، وكان على «هوستين»
أن يتعلق بسلسلة «جاريبالدي»، المتأهب لمساعدة السلطة عند أي
بادرة.

ومرت لحظة.

وعند العتبة، ظهر شاب نحيف، ذو عينين مغوليتين، وجبهة
صفراء منخفضة، وهمست الجموع: «التونكيتوا».

أغلق الباب خلفه، ونظر إلى الضابط، دون أن يتقدم نحوه بخطوة
واحدة:

- «ماذا تريدون؟».

- «أسكت كلبك، وافتح لنا الباب الحديدي».

كان الصوت قوياً، وشكل تهديداً اهتزت له كل القلوب وفتل
«التونكيتوا» شاربه للحظة، ثم أطاع دون إسراع من جانبه.

وراحت مجموعة العمدة تتبع الضابط، دخل المكان في شجاعة
ملحوظة، أما باقي الجمهور فقد توقف لتوه خلف السور.

- «هل يسكن أبوك هنا أيضًا؟».

تردد الشاب ثم استدار، وأمسك رأسه:

- «هذا لا يخص أحدًا».

- «معذرة، الأمر يهمني، يجب أن أتحدث إليه».

- «ماذا تقول له، سوف أبلغه».

- «لدي ما أكلمه فيه على الأقل، وبشكل شخصي..».

تحدث الضابط بشكل محدد، وهو يخطو نحو المنزل.

ظل «التونكيثوا» مزروعًا أمام الباب المغلق، وقال دون أن يحرك

عينيه:

- «لا أعتقد أنه يمكن الدخول هكذا إلى بيتنا! لا.. أبدًا».

وضع الضابط يده على زناد مسدسه وسرى همس بين الجموع، إنهم

لا يحبون مطلقًا آل «باكو»، لكنهم يكرهون الشرطة أكثر.

من جراب المسدس، سحب الضابط ورقة وضعها تحت عيني

المزارع.

- «انظر جيدًا يا «باكو»، ليس هذا طيبًا بالنسبة لك. أنت متهم

بحبس عجوز دون دفاع عن نفسه، نحن هنا في خدمة القيادة، كي

يخرج الأمر إلى الضوء اتركنا ندخل، وإلا..».

وأبدي الشرطيان حركة وكانا على استعداد للإمساك بالرجل وأن يمد له بالأصفاذ. رفع عينيه المتوحشتين المطاردتين وهو يتفحصهما، الواحد تلو الآخر، الشرطيان، والعمدة وكل الذين دخلوا الفناء، بكل غضب، وهو يهز كتفيه، قال وكأنه يبصق:

- «أنتم تثيرون جنوني! ادخلوا إذا كان هذا يرؤسكم!»

ثم طرق الباب بإصبعه، وأمر بكل جفاء:

- «افتحي!».

وسمع صوت المزلاج يتحرك، وانفتح الباب على عقبه.

إنها قاعة مغلقة مظلمة تمامًا، ومليئة بالأدخنة.

تراجعت الفتاة «باكو» إلى نهاية الغرفة حيث يوجد سرير تحت تمثال من الصلب للسيد المسيح، تبدو نحيفة وبلا ردين. في قميص قصير، والرأس مخفأة في مئزر منزلي، لم ير منها سوى لون أحمر داخلي، ومن أجل الدفاع عن أخته، فإن «التونكيتوا» وقف قريبًا منها.

ردد الضابط بعد صمت:

- «حسنًا، والأب أين هو؟».

قال الشاب:

- «في غرفته».

- «أين هو؟».

- «في غرفته».

- «أين هو؟».

رفع الابن وأخته، يديهما نحو باب منخفض أسفل السرير، قال الضابط:

- «دلني على الطريق».

استدار الرجل نحو أخته، ثم اتجه نحو الباب وفتحته حيث ظهر حوض مبلل داكن في الأعماق ثم باب آخر. أدار الابن «باكو» المفتاح فيه بنفسه.

انحنى الضابط كي يدخل في غرفة صغيرة تبلغ مساحتها أربعة أمتار، حيث انبعث رائحة كريهة وفوق سريره الصغير جلس رجل عجوز يرتدي قميصًا جديدًا وقد عقد يديه المبللتين فوق ركبتيه. احمرت عيناه دون أن تعبها عن شيء وراح ينظر إلى الوافدين.

بدا العجوز كأنه معلق في مكانه، لا يمكن أن يظل واقفًا إلا عند المدخل فلا يوجد سقف، وفي وسط القرميد المهشم، بين دعامتين، عاش يومًا عصيبًا محددًا وواضحًا، الأرض من الطين عليها مقعد، وهناك قصعة نظيفة، وأمام سرير حقير، يوجد جردل مرحاض بلا غطاء وفارغ لكن ترى من أين تفوح رائحة الأمونيا؟

قال الضابط:

- «صباح الخير أيها الأب باكو..».

رفع العجوز المدهوش عينيه نحو الضابط ولم يرد.

«ماذا تفعل إذن في هذه الغرفة الضيقة؟ لماذا لا تجلس في

القاعة مع ولدك؟

صاحت الفتاة بكل وقاحة:

- «هذا يعجبه كثيرًا».

استداروا جميعًا، بمن فيهم العجوز نحوها كانت تتحدى، بدت

لهجتها كأنها تضيف مهانة على موقفها.

«أنا أتكلم إلى العجوز، دعيه يرد.. لماذا أنت هنا يا أبي العجوز

في هذا الوقت الجميل؟ إنه غير صحي.. ألا تحب أن تكون

بالخارج؟»

نظر العجوز إلى ابنته، ثم ابنه، ثم إلى الضابط ولم ينفث بكلمة.

ردد الضابط: هيا قم لقد جئنا نأخذك إلى الهواء. عندي فكرة أن

وجودك هنا ليس أمرًا طيبًا».

«علقت الفتاة:

- «بصراحة إنه يسعد حين يكون هنا!».

أبدى الضابط حركة كي يمسك «باكو» من ذراعه، لكن العجوز تخلص منه بحركة مفاجئة غير متوقعة.
«لا!».

ضحكت الفتاة ساخرة.

- «ألا تريد أن نساعدك؟ حسنًا قم إذن، وتعال إلى القاعة كي أشرح الأمر لكما أنتما الاثنين».
- «لا!».

- «لماذا؟».

ران صمت.

- «هل تخاف من ولدك؟». زمجر العجوز:

- «لا أخاف من أحدا!».

- «إذن لماذا تحبس نفسك هكذا؟».

احتجت الفتاة:

- «إنه ليس محبوسًا».

- «معذرة، المزلاج لم يفتح إلا بمفاتيح بايين من الخارج، هذا

اسمه «حبس»». برطمت الفتاة:

- «حتى لو كان على ما يرام هكذا؟ دعونا في حالنا».

كرر العجوز بنفس النغمة الحادة:

- «دعونا في حالنا!».

قال الضابط:

- «هيا، الأمر بادٍ للعيان، ولدك حبسك هنا من أجل أن تكون لهما السيادة ويستغلا مكانك ومكانتك!».

قالت البنت من بين أسنانها:

- «كذب!».

ونظر إليها العجوز، وتمتم:

- «كذب..».

شرح «التونكيثوا»، وقد بدت عليه شدة اليأس:

- «إنه رجل عجوز، وهذه ليست قوته، ولم يعد في كامل عقله، يريد البقاء، حتى ينعم بالهدوء هنا، يسد جوعه حين يريد وينال كل ما يوده، أليس كذلك يا أبي؟».

- «بلى».

وتدخلت الفتاة:

- «والحذاء الخفيف الذي يضعه في قدميه، أنا التي طرزته له، لأن البرد يؤلمه دائمًا في ساقيه أليس كذلك؟!».

- «بلى».

تقدم الابن خطوة:

- «اكشف عن صدقك إلى رجال الشرطة!».

وبكل هدوء بحث العجوز تحت فراشه، وسحب علبة الغليون الداكن، لفافة جرائد بها بعض التبغ. قال «التونكيتوا» متصرا:
«نحن لا نرفض له شيئا، نلبي له كل رغباته.. أليس كذلك يا أبي؟!».

- «بلى».

ظل الضابط مرتبكا، ومتوترا:

- «ما دام كل شيء على ما يرام، فلنذهب».

انحنى ثم وضع يده على كتف العجوز:

«لنر، أيها الأب «باكو»، للمرة الأخيرة. أخبروني بالحقيقة، لم يصبك سوء، لماذا أنت هنا؟ هل يعجبك هذا؟ أم لأنك هنا رهينة؟».

هز العجوز رأسه، دون كلمة. وانفجرت الفتاة:

- «فيم يهملك هذا؟ أليس السيد في بيته؟ نعم أم أن هناك

لعنة؟».

صاح الأخ:

- «أغلقي فمك».

وألقى الأب «باكو» نظرة إهانة إلى ابنته، ثم كرر، كأنه الصدى.

- «هل أنت السيد؟ نعم أم أن هناك لعنة؟».

وران صمت.

وجه الضابط رأسه، وهو يختبر رجاله، والعمدة، وخيال المائة،

وساعي البريد، وأخيرًا اتجه نحو الباب:

- «أنا سوف أنسحب لقد جئت كي أخلصك من هذا، وإذا كنت

راضيًا هكذا كي تخنق في هذا الثقب الضيق فهو أمرك! وحسب

مزاجك!».

في الفناء، تكدس العشرات، أكثر شوقًا، وقد تجمعوا في الشمس

أمام الباب الأخضر.

رمقتهم الفتاة، بغضب بادٍ. رفعت قدمها في الفتحة وأمسكت

بصندلها وكأنها تود أن تضرب به الضابط، لكن يد أخيها ضربتها

فوق قبضتها فرمت بالصندل، بصرخة غضب، وهي تقول:

- «أليس من المخجل أن تتصرفوا هكذا؟».

وفي الخارج، علت السخرية فقد انتهت المأساة بشكل يثير

الضحك.

زمزم الضابط:

- «هيا، لا تجمعات، تحركوا!».

واستدار نحو السيد «أرنالدون»، وأعلن بصوت مسموع:

- «لقد رأيتم الأمر كما هو عليه، يا سيدي العمدة، ليس لديّ ما أقوله، سوف أكتب تقريرًا بذلك».

وتبعه رجلاه، وخرج بكل كرامة وعبر الحشد المجتمع، دون أن يبدو عليه أنه يبالي، ومن خلفه راح الاستهجان والصفير يتبعاه.

همس «جوانيو» وهو يرتشق إلى جانب «كوفان» وكأنه يقذفه بضربة كتف:

- «مهنة قدرة.. لقد أخبرتك يا كابتن: كنت أحب أن أكون مثلك شابًا يافعًا لخيال المآة، أكثر من أن أكون مغفلاً..».

السيد دي نافيير

22

عرضُ جاد، عند طرف الطريق المشمس، أداه هذا العجوز الأحدب، الذي يرتدي ملابسه الأشبه بخيال المآة، والذي جاء من ظلمات حديقته، السيد «دي نافيير» هو بلا شك

الساكن الأوحـد في «موييرو» الذي لم يعبأ لـبـ «باكو» ولا برجال الشرطة، فلديه اليوم شيء آخر يفعله.

فعن بُعد لمح ساعي البريد، فصار كطفل في مقتبل العمر، وابتلت يده.

- «صباح الخير يا بول. معذرة.. أتمنى أن أسلمك رسالة.. نعم، عندما ستمر، حالاً، رسالة مهمة.. السيد «دي نافيير» يخاطب كل أبناء البلدة بلا تكلفة، ولا يعرفهم سوى بأسمائهم الأولى». قال «جوانيو»:

- «سوف يحدث هذا».

اختفى العجوز، الذي تأكد له الميعاد، من جديد وسط الظلال الخضراء.

يسكن في أقدم ضواحي القرية التي تقع وسط الطريق، في هذه البقعة الخصبية التي تسمى «ليسيل»، هذا المبنى المتهالك مثل صاحبه، والمكفن معه أسفل اللبلاب وسط غابته البكر، التي تشبه كنيسة مشيدة في مقابر غير مأهولة بالسكان.

الرسالة التي يعينها موجهة إلى السيد محافظ متحف كارنفاليه في باريس، كما كتب «... فيما يتعلق بوجود متكامل بالتتابعات، فإن صدفة محببة سمحت لي أن أقوم بمجموعة من الأشياء القديمة معاً.. أتمنى ألا تتبدد رفات الماضي بعدي وسط أدراج ريح الصحراء الأربعة وإلا سوف أقدمها - يا سيدي المحافظ - إلى مزاد علني..».

هذه المجموعة تضم بضعة أمتار من الدانتلا، وإنجيلاً قرضته الفران، و«جيليه» مطرزاً بالورد على طريقة لوي فيليب، وقطعتين من العملة تم العثور عليهما في المنطقة، وكتاب صلوات حصل عليه السيد «دي نافير» بعد أبحاث شاقة يفترض أنه يخص كاهن من طائفة الساسونيين.

ومنذ أن تمت إحالته إلى الاستيداع كموظف قديم في مؤسسة ائتمان. قضى جزءاً من حياته يدور حول هذه البقايا القديمة، يرتب مجموعاته داخل دولاب أسود، في داخله يقوم بلصق ملحوظات مكتوبة للقرن القادم.

وهذا الدولاب الجيد الصنع، القديم تم عمله بتاريخ لم نستطع تحديده، في معارض «جويوما» أسطى التجارة في «موييرو»، تحت إشراف عمي الكبير «ستانسيلاس - لوي دي نافير» الذي مات عام 1872.. حصل عمي - كملحق بوزارة الفنون الجميلة - على شرف تأدية بعض الخدمات للسيد «جارنيه» المهندس المعماري للأوبرا الكبيرة في باريس، ربما أنه ليس من التهور أن نحدد - على الأقل - القيمة الإجمالية لهذا الدولاب التي تمت المبالغة فيها من صديقه الحميم.

كان من الصعب على السيد «دي نافير» أن يحدد تاريخ الدولاب، هذا الجسم اللامع بلا سن، لديه عينان جميلتان رماديتان مدهوشتان، أسفل حواجب تشبه القوس، وأنف دهنية، وذقن بيضاء، وصيفًا وشتاءً يرتدي قميصًا قطنيًا رماديًا وسترة طويلة بالية، مرتفعة بالبقع القشرية، إنه الوحيد في الدنيا غير معروف الأصل والمصدر منذ نهاية الحرب، يعيش على ديون صغيرة، في داخل هذا الكهف، بصحبة قطة عجوز عمياء، صحبة أقل صحبًا، لأن القطة تجلس دائمًا فوق قطعة قماش، لا تغير مكانها كثيرًا إلا لتذهب لقضاء حاجتها مرة أو اثنتين في اليوم، بالمصادفة في ركن من المكتبة رغم أن الغرفة ليست بها كتب، إنه الاسم الذي يطلقه «دي نافير» على هذه الغرفة الواقعة في الدور الأرضي، حيث ينتظر نهايته بأقل قدر من الصبر، في متجر مترب، يطل عليه ضوء النهار وتتسرب منه الأوراق، والزجاج الأخضر، ناشرًا ضوءًا ساطعًا.

لقد تألف مع وحدته، وليس سوى هم الهروب من شيخوخته الطويلة، كي يناضل قليلاً ضد ذهوله، يتكلم إلى نفسه، في صمت ملحوظ بصوت لزج، من ناحية أخرى فهو طويل، يبقى مستيقظاً أغلب نهاره وليله، طارت قواه في بطاء ملحوظ رغم أنه يتغذى بشكل سماء، يعيش مثل قطة على القليل من كرات الخبز في اللبن، وكان طاقم أسنانه يتلقت دائماً، اشتراه من طيبب أسنانه قبل الحرب، لكن الجهاز الإضافي صار مؤلماً ولأنه بالغ الفقر لدرجة أنه لا يستطيع إصلاحه، فإن السيد «دي نافيير» كف عن استخدامه.

فكر «جوانيو»: آه سوف أنسى البقايا القديمة.

إنه ممر، ترك الزمن أثره فيه، حلزوني بين منطقة النباتات الشوكية حتى مسكن السيد «دي نافيير». الباب مغلق. وعند العتبة، علبة لبن يحتوي غطاؤها على بعض النقود، تشبه قرباناً مهملاً هناك لخلود بعض آلهة الغابات.

لا يستقبل السيد «دي نافيير» زواراً بالمرة وأيضاً عندما يسمع طرقات مطرقة الباب، فإن قلبه يدق في كل مرة ينهض بسرعة ويلقي حوله نظرة مليئة بالقلق، ويتحقق من فتحة السروال ويفتحها، وهو يسحب نعليه نحو بلاط الممر:

- «ها أنت يا بول.. ادخل يا صديقي.. سوف أسلمك المظروف..

لا تضيعه إنه يحتوي على وصف الاختراع، من نسختين حسب

وصية السير «دي نافيير».. عضو الجمعية الأثرية للمدينة الكبيرة.. إذا أتاحت له فرصة السفر إلى باريس فيما بعد.. فسوف.. ولكن لا يهم.. هذه رسالتي.. ضعها في جعبتك.. وهذه هي النقود التي جهزتها ثمنًا للطوابع..».

كان لسانه الثقيل يتلعثم في لعبه محدثًا صوتًا أشبه بالضفدعة.. وعلى طرف لسانه الداخلي ظهرت بقايا شراب، متأهب دومًا للهرب كما يبدو، ولكن العجوز يبدو كأنما أصابته حالة من الشعوذة.

قال «جوانيو».. وهو يتفحص المظروف:

- «حسنًا، إنه ثقيل، يلزمه طابعان». دقق العجوز في الرسالة بنظرة متفحصة:

- «طابعان؟.. طابعان لخطاب واحد يا «بول».. هل أنت متأكد؟!».

راح يبحث عن قروش في جيبه، وأخرج ثلاثة قروش من بنظرونه، ورابع من سلته، ثم راح يتذكر إذا كان قد وضع قرشًا على المدخنة، أو درج الكومدينو، وجيب الجلباب المعلق على باب الدولاب، ولحسن الحظ هناك بعض القروش في حافظة قديمة مخفأة أسفل سجادة القطة، وتذكرة غير مطبقة.. لكن هذا هو غداؤهما القادم على الأقل، ولا يجب أن يمساها، مهما كان السبب، الآن على الأقل.

- «انتظر، يا صديقي، سوف أعود».

تذكر فجأة القروش التي يضعها هناك في علبة اللبن لابتته «موريس» كل مساء، عند الدخول بلتر من لبن الماعز الذي يدفعه مقدمًا، خسارة، فسوف يتناول نصف لتر من اللبن غدًا، هو وقطته.

أخذ «جوانيو» النقود، وتوجه نحو الباب، بينما جلس العجوز مذهولاً:

- «النقود، كما ترى يا «بول»، النقود، دائماً النقود، لقد أردت أن أبيع مجموعاتي.. ولكنني أزدري النقود، إنها شيء يجب ألا يكون موجوداً.. أعرف ما هي، فقد ظلت موظف خزنة ثلاثين عاماً كما ربطت حزم أوراق، وملفات! رأيت الأشياء عن قرب.. رأيت الناس يأتون إلى نافذتي! النقود دائماً هي النقود.. إنها سبب كل شيء هناك، لقد فهمت كل شيء كما ترى.. تنبته لكل ما حدث في روسيا.. هل قرأت الصحف يا «بول»؟».

إنه يجهل كل ما يدور في العالم، ولكن انهيار روسيا عجل بموقفه، فهو يحمل فضولاً قوياً لظلال روسيا.

هناك، الكثير من المال، هناك النقود، لا وجود لها، كل الناس تعمل من أجل أن تحصل على نقود.

ضحك «جوانيو» ساخراً:

- «حسناً كما خبرتك، فالأمر لا يهمني..».

- «لماذا؟ هناك يا صديقي، إنها الدولة التي تغذيك، فالدولة هي التي تسكنك وتلبسك وهي التي تربي أطفالك، الدولة تعتني بك لو كنت مريضاً، والدولة تجعلك على قيد الحياة لو كنت عجوزاً.. وتدر لك المزيد من النقود لو احتجت إلى المال.. إنها جادة، أليس كذلك؟ الكثير من الديون، والغباء والقروش من أجل اللبن، المزيد من الافتراضات، والكثير من المساومات! أنت لديك كل شيء، دون أن تشتري شيئاً! قد تفهم خطأ لكن لم لا. في الواقع؟ إذا تم ترتيب كل شيء هكذا؟ لم لا؟».

قال «جوانيو»:

- «أحب أن أكون هكذا.. «أظل في بيتي.. وأكسب»».

مشى العجوز في إثر العجوز بشكل آلي وهو يجر قدميه، فلديه أفكاره، همس وهو يرمش بعينه:

- «لا.. لا.. ليس هذا طيباً ما تقوله يا «بول».. النقود.. ليست طيبة يا «بول».. إنها شيء يجب أن يكون غير موجود.. إذن يا صديقي! لماذا لا تغيرها، ما دامت سيئة؟».

وقف عند الباب المفتوح، ورمش بعينه، يحمي نفسه من ضوء النهار، بيديه، وجبهته المحنية، ونظر إلى علبة اللبن الموجودة أسفل قدميه، دون أن يهتم بالساعي الذي ابتعد، وقد ارتسمت ابتسامة على شفطيه البنفسجيتين.

«.. فقط، حقًا، نحن نفهم الأمور بشكل سيء.. وعلينا أن نقبلها،
أنارجل عجوز، ومتعب، أحتاج إلى من يعتني بي، أحتاج أن يحضروا
لي اللبن، الدولة تحضره لي.. حسنًا.. لكن ما الدولة؟ الموظفون؟
من؟ جابي الضرائب؟ العمدة؟ لديهم أشياء عليهم إنجازها.. وإذا
نسوا لبني؟ وإذا بقيت هنا، بدون لبن.. إذن ماذا؟..».

لاميلي وچوزيف، في المخزن

23

عندما دقت الساعة السادسة مساءً في منزل العمدة.. كانت «لاميلي» ترتب منزلها، تخرج الشبايك، وترفع قبضة باب المدخل، ف«جوانيو» لا يعود إلى بيته إلا لتناول الحساء، وعندما يمارس بعض الأعمال في منزل «بوس».

بعد أن تلقي نظرة على الحساء تذهب «لاميلي» إلى الصومعة، ماذا تفعل؟ هل تعرف جيداً؟.. لترى إذا كان الغسيل قد جف.. إنها الساعة التي يعود فيها الصغير من عمله، يعود ليتهدم قليلاً قبل أن يذهب للتسكع في الميدان.

تنتظره «لاميلي» وتفوح رائحة الندى من الصومعة، وأيضاً الكتان الساخن والزيفون، والفئران.

وعمدًا يقرع الباب السفلي، تنادي:

- «أنت يا «چوزيف»، اصعد لي بكرسي هل تريد؟».

تقدمت إلى طرف فتحة الباب حيث رفعت ريح خفيفة طرف ثوبها الخفيف، ومن فوق الدرج، رفع الشاب رأسه، احمر من الخجل.

تأهبت «لاميلي» لربط الحبل، لكن المقعد الخشبي فوق أرض غير مستوية.. قال «جوزيف»: بصوت رخو:

- «هيا سوف أساعدك».

وبدورها احمرت خجلاً! تعتقد أنها كذلك؟

- «اصعد أنت أخاف من السقوط».

ويطيعها.

- «شد الحبل، وعقد عقدة أخرى».

كي يبلغ المسمار، مد ذراعه، فبرزت الأوردة في يديه، وبرزت من مؤخرته الصغيرة الناشفة أمام وجه المرأة.. يمكنها أن تلمس صدغه برموشها التي ترتطم، ورائحة فواحة من جسد الشاب، رائحة العمل والأفروال الأزرق، المبقع بالشحم. إنه مبلى الساقين والقذارة تعلقو الركبة. تخفض لاميلي عينيها، فقدا الشاب حافيتان، في صندله الأسمر. تتأمل أوردته التي تتدفق تحت هذا الجلد عن قرب.

قفز من فوق المقعد:

- «تمام».

- «شكراً».

ابتعدت نادمة، وكان كل شيء قد انتهى.

وقبل أن تذهب، مسحت على غسيلها، وهي تعقد ذراعيها، إنه جاف، تحاول أن تضحك بقوة:

- «لم يستمر هذا طويلاً، بسبب الحر!».

أما هو، وعند الطرف الآخر من الجبل، فذراعاها تهتزان، ينظر إليها بينما شفتاه الطفوليتان فاغرتان عن أسنانه. إنه أصلت، بلا لحية، ولكن تحت ضوء النهار اللامع، فإن خده يبرق، ويلمع عرقه كاللؤلؤ أسفل الفم. يدخل يده في فتحة قميصه ويدلك صدره مثل القرد، دون أن يجد ما يقوله.

تمر أمامه.. والجبل بين يديها.. ويتبعها بعينه، بينما تنزل السلم وهو يتأملها. يعاود النظر في الممر إلى سروال المرأة الصغير المعلق على الجبل والذي يغازل وجهه، دون أن يأخذ هذا في اعتباره.

في الشفق - هوستين وجاريبالدي -

«جوانيو» والفرخة الصغيرة

انتهى اليوم

24

في الميدان، ظلال الأشجار، على وشك الزوال،

تسقط بقع شاحبة دائرية فوق التراب.

بعد طعام المساء، ظهر «جاريبالدي»، انسحب الرجل المسموم أمام شرفة «بوس» مثيراً بهجة الأطفال، وبعض الحرية، دائماً هم أنفسهم، سريعو الملل، يبدو أن حرارة الجوف في ذلك اليوم بدأت تخف وتتحرك، وتداعب أنصاف الجباه التي يملأها العرق.

ضرب «هوستين» جبهته:

- «جاريبالدي»، قدم لنا هذا المساء طبق سلطة جيداً». اهتز الكلب، وجاء بحزمة من الحشائش ثم وضعها أرضاً، أسفل قدمي سيده، أمر «هوستين» قائلاً: «خل!». وبسرعة رفع الكلب مخالبه فوق خصلته. «زيت!» غير «جاريبالدي» مخلبه وعاد من جديد، ضحك، وراح «هوستين» ينزع الشعر:

- «يا إلهي لقد نسيت الملح والفلفل». استدار الكلب، وراح يحفر الأرض بمخالبه الخلفية، ورفع خلفيته تحت الرمل، فصفق بعض كبار القوم ورموا بالقروش التي راح «جاريبالدي» يجمعها ويضعها في جيبه.

أمام المكتب، أخذ «جوانيو» وزوجته «لاميلي» النقود، من فوق مقعد، مع «چوزيف» الشاب، إنها الساعة التي يأتي فيها المحالون إلى المعاش لإلقاء رسائلهم في الصندوق، حيث يتبادلون دوماً، مع ساعي البريد بعض الكلمات الودودة، خرجت مجموعة من الشباب، بين الثامنة عشرة والعشرين من حانوت «بوس»، قبل أن يصلوا إلى كومة التبن فوقفوا لمشاهدة الشاب «فرنسيس»، ابن السيد «فرديناند»، وهو يجري في شكل دائري، إنه «المقص الحزين» أصهب صغير، ذو عينين دائريتين، لا يرتدي سوى بنطال من الكتان، وكى يستفيد من بعض الأشياء ضد رغبته الضائعة، يدخل كل مساء في سباق على الأقدام، حول الميدان.

صاح «جوانيو» بحيوية، وهو يحيي رجال الغد:

- «صباح الخير يا شباب..».

هناك الابن الأكبر «چو» المزارع، شجاع، ذو عينين رماديتين، عامل متميز، يدس دوماً عُقب سيجارة في شفّيته، يشعر بالخلاء

وهو يضع يديه في جيبه على الطريقة الباريسية، هناك أيضًا «نيكولا بويود»، ابن الحداد.

ضحك «جوانيو» ساخراً ومبتهجاً:

- «ألا يوجد المزيد من التئورات في القرية لدرجة أن الشباب يتجمعون في المقهى مثل الشيوخ؟».

رد «جو» الكبير واقفاً دون مبالاة:

- «إنهم لا يرتدون ملابس داخلية مثلما يفعل المتزوجون يا سيد «جوانيو». أكدت «لاميلي»:

- «إجابة رائعة».

ردد «جوانيو»: أنت دائماً هكذا، لست في حاجة قط أن تشذب لسانك لكن، لقد أخبرتك، أيها الشاب يجب أن تكون أكثر لياقة من أبيك، عندما ستكون مدرساً في «باس - فوس» هل تعتقد أن هذا الحقيير يرفض دخول حديقتي، إنه لو غداً قال «جو»:

- «أنا مدرس في «باس - فوس». سلام».

- «ألا تود أن تبقى في المزرعة؟».

- «أنت لم تنظر إليّ يا سيد «جوانيو»».

- «هذا.. أمر جديد.. أين تريد أن تذهب إذن؟».

- «لا يهم أين.. إلى أي مكان.. ما رأيك يا «نيكولا»؟».

لـ«نيكولا» رأس عنيد، إنه يعمل مع «چوزيف» في محل الحدادة، لأن الأب «بويود» لا يقبل مطلقاً أن يدخل ابنه الكتاب، ولكنه ينتظر خدماته كي يرحل - دون أن تكون لديه نية الرجوع، ردد بصوت مؤثر:

- «نحن شباب ونريد أن نعيش». ردد ساعي البريد:

- «ونحن لا نعيش.. ربما؟».

شرح «چو الكبير»:

- «نحن لا نردد شيئاً ضد أحد، يا سيد «جوانيو»، علينا أن نكون عقلاء: هنا كل شيء مستهلك.. في المدينة الكبيرة، ومع ذلك فإن العالم لم يتأخر مثلما يحدث في بلدتنا».

في هذه اللحظة، قفز الابن «لوتر» من الدراجة، وسط الدور الأرضي، وهو يحمل سلة دقائقها الشمس، أرسلتها أمه إلى زوجة «جوانيو»، راحت الرياح تهش على شعره الجميل اللامع، وتجفف العرق الذي انبثق على وجهه البراق الذي اكتسب حمرة.

ردد «جوانيو» وهو يلتفت إلى زوجته:

- «نحن متأخرون بشكل عام، فوسط مئة ناخب، نحن دائماً

صوت من اليسار».

وراح «جو الكبير» يضحك:

- «نحن لسنا من اليسار، ولا من اليمين، يا سيد «جوانيو»».
أعلن «فرانيسيس» الذي يقضي أغلب وقته في قراءة الصحف في
صالون الحلاقة:

- «لتذهب السياسة إلى الجحيم».

بصق «جو» عقب السيجارة، وسحب يديه من جيبه، وحدث في
وجه ساعي البريد بنظرة تخلو من الكياسة.

- «أخيراً، يا سيد «جوانيو»، سوف ترى، رغم أننا نقوم بالتعليق
على بعض الأمور، فإنك تقول: إن الأرض كروية، وإننا يمكن أن
ندور معها! نحن أيضاً، لو انضممنا إلى اليسار مثلك».

همهم ساعي البريد، وهو يطوف بناظره بغضب:

- «اللجنة على الشباب، فاللبن ينسكب أيضاً على المفارش،
وهذا يعني أن كل شيء سوف يفسد». ردت «جو»:

- «عين الجمل القديم صار ناضجاً الآن ليس عليك سوى أن
تدقق في الفنجان، وسترى أن كل شيء ينحدر». قال «نيكولا»:

- «لن تكف عن النظر فيه يا سيد «جوانيو»!».

اتكأ الصغير «لوتر» على مقود دراجته، وهو يستمع إليهم، وقد
انفضت النيران في وجنتيه ولمعت عيناه، أحس بأنه أشبه بمركب
شراعي متأهب للإبحار بأقصى سرعته.

وتغير «چوزيف» أيضًا، حيث قام فجأة من فوق مقعده، كي
 يبتعد أكثر عن «جوانيو»، ويكون أكثر قربًا من «چو»، و«نيكولا»،
 و«فرنسيس»، فالحياة التي يحياها هنا، في نيران الحدادة تبدو له،
 وكأنها تفوح بنيران كريمة الرائحة.

سألت «لاميلي» وهي تشعر بمعاناة أقل دون أن تبعد عينيها
 عنه:

- «أنت يا «چوزيف»، هل تبصق على هذا البلد؟».

رمى الصبي بكلمته بصوت جهوري لم تألفه «لاميلي» قط:

- «طبعًا!».

رئيس المحطة - عائلة لوتر -

موريكوت وابنته - عائلة پاكو - السيد دي نافيير

اقرب الليل ببطء، بدا كأنه يلف هذا المكان بين يديه
من أحضان النهار، وأيضًا القرية، التي تبدو الحياة فيها
معلقة، يأمل كل شخص فيها أن يعيش في انتعاش،
يقضي لحظته

25

الحلوة حتى وهو يعود إلى غرفته الخائفة، وسريه الدافئ، الرخو،
البالغ الضيق.

مر قطار الساعة الثامنة واثنتي عشرة دقيقة مساءً، والقرية يسكنها
الليل، كي تنام، صعد «الرئيس» إلى غرفته، وتخلص أخيرًا من غطاء
رأسه، ومن ياقته، ومن جلبابه، ثم جلس على طرف سريره، ونزع
حذاءه السميك ببطء، ووضعها الواحدة وراء الأخرى عند قدميه
المصابتين بالتشقق.

سطع ضوء السهاري الأحمر في النافذة المفتوحة، لماذا يشعل
الضوء؟ لم تنتبه الرغبة في القراءة هذا المساء، ولا في تصفح ألبومه
ذي الطابع البلجيكي الذي أعطاه له ساعي البريد، إنه هناك، الآن

يمكنه أن يقضي أوقات فراغه لأيامه الأخيرة مع هذه المجموعة، ويمكن أن يخصص من أجلها بضع دقائق، إلا أنها لم تثر اهتمامه بعد.

وفي مسافة قريبة، في دفة المصباح المغلق دوّمًا، راح رجل الفريق الذي حل مكان «فلامار» ليلاً، ينفخ مثل النورج.

في أعماق المستنقعات القديمة، تنام القرية الخجولة، يكسوها الظل، والانتعاش. حيث لمعت أول نجمة في السماء عبر الأماكن المأهولة بالسكان. جاءت السيدة «لوتر» من المراعي، حاملة سطل اللبن. ولكن، لا رقة المساء ولا عزف الأكورديون القادم من حولها وهي تقترب من المنزل استطاع أن يترك أثرًا في وجهها الجاف، فهي امرأة بلا أحلام، في حياتها التي كرستها من أجل أن تكسب.

أنهى «لوتر»، والعسكري الألماني «فريتز» عملهما، وملأت سلال البطيخ الشاحنات الصغيرة من أجل شحنها غدًا، كانا جنبًا إلى جنب، فوق مقعد صنعه «فريتز»، ثم استراح الرجلان، انتابت الباقاري حالة من من الحنين، وهو يمد يده خفية، إلى رقبة الخالية من الشعر، ثم دخل على الأكورديون رغما عنه، وأصدر عنه نغمة جميلة، أصاخ الأذنين، إنه

لا يعزف إلا لنفسه، وفي الليل الساكن، كرر «لوتر» بصوت خفيض - دون أن يفهم - كلماته الغريبة التي يسمعها دومًا منه، وضعت السيدة «لوتر» السطل فوق المقعد، ويدها على مؤخرتها، وظلت ساكنة للحظة، لا شيء يدل على أنها تستمع إلى الموسيقى، ومن حولها انبعثت رائحة اللبن الطازج مختلطًا بالأرض الساخنة وبالقمامة، والبطيخ، قالت دون أن توجه كلامها إلى أحد:

- «غدا.. يجب أن نبدأ في جميع بقوليات الجلبان».

خلف الكوخ، انطلقت «موريسوت» وابتهت نحو المنحدر، وقد تأخرتا عن ساعة العودة إلى القاعة حيث يتفشى السل.

غنت «موريسوت» أغنية بلجيكية، مؤكدة أن الصغيرة لن تثير أية قضية، وترتكب أي شيء! قالت الأم:

- «إذا كنت بدينة حقًا، فالحل الوحيد، هو أن أتركك تجرين وراء الشابين «ميرالفين»، ثم أذهب لتكسير القطعة، وأرد على الآخرين.. لكنني أود دومًا أن أحكي ما جرى هنا إلى أن أموت، حيث سأظل أصلح لك الأشياء حتى تبلغ العشرين».

سمعت الفتاة البوهيمية، المتمددة على ظهرها، ويدها تحت عنقها، وهي تفكر مشمئزة في الخبازين الملتحين، فكرت أيضًا

في «جوانيو» ساعي البريد، وغاصت بساقيها العاريتين في العشب الطازج، ثم حدقت في السماء الممتدة، وفي النجمة الأولى التي سطعت.

نام فوق سريره الحقيقير، وهو يعرض غليونه المنطفئ دون أن يفكر في شيء، إنها نفس النجمة التي ينظر إليها الأب «باكو» من خلال المنشفة المثقوبة، بين دعامتين، هل تهتز النجمة أم أن جفنيه يحترقان؟ تختلط رائحة البرميل برائحة بقايا الحساء الذي ينبعث من القصة، وبالخارج تطلق البومة كل مساء نعيقها، وترحل باحثة عن صيد.

وعلى الجانب الآخر من الجدار، يسمع العجوز ابنه، وابنته، التي يكرها أكثر مما يخشاها ويثور وينفخ، دون أن يتمكن من النوم، في السرير الكبير بالقاعة! السرير الذي ظل ينام فوقه أربعين عامًا، منذ أن كان مدرسًا، حتى أصابته الشيوخوخة، السرير الذي أصابته فيه صرعة بعد أن قتلت الحرب ولديه.

وفي الحشايا تمدد الكلبان اللذان تخلصا من قيديهما، وراحا يزمجران تاركين خلفهما كل صدى المساء، كل أفراد أسرة «باكو» الثلاثة، يحلمون بالانتقام، وقد غلت الدماء بالحقد، وتأهبوا الرصد أقدم الأصوات من حولهما.

في المكتبة.. يبدو الغروب مبكرًا عن أي مكان آخر. إنها الساعة التي لا يمكن تمييز النباتات عن جدرانها، وحيث تصبح المرأة مربعًا من الضوء، إنها الساعة التي لا يحبها السيد «دينانير» مطلقًا.

يوقظ اقتراب الليل عند العجوز قلق الانتظار، وإحساسًا بالفراغ، يشبه دوامة الجوع، يتساءل إن كان قد نسي شرب اللبن، في رأسه، وفي أعضائها الساكنة، تمر مثل الذبذبات، وتتتابه الرغبة من جديد، أن يذهب إلى أشخاص مجهولين، أفضل، موجودين في أي مكان، ولكن في الوقت نفسه، دون ندم ومع تخفيف المعاناة - يحس أنه غير قادر على بذل مجهود، لقد تأخر كل شيء، لعل هذا أفضل.

وبدافع الاقتصاد، فإنه يؤخر لحظة إشعال مصباح الغاز، وغالبًا ما ينام في الظلام، وينسى أحيانًا أن ينام، وعند الصباح، يجد نفسه في غرفته القديمة، يتكلم إلى نفسه، يداه فوق ركبتيه، وقطته تحت قدميه، وطوال ساعات، يمكنه أن يحرك ساقه، في فمه الجاف بلا تعب، وهو يفكر، لأنه يحب التفكير ويخاطبه، وفخور به، إنه يفعل ذلك بصوت عالٍ...

النقود، النقود، هي سبب نكسة كل شيء، والنقود شيء يجب أن يختفي، لكن كل الناس تريدها، الخباز وموظف الضرائب، وساعي البريد بطوابعه.. النقود دائمًا، ولا أحد ينالها، وهذا ما يسيء إلى الأمر أكثر.. قديمًا كان يمكن أن تختفي ولكن الآن، فالعالم، والسياسة، لن يستمر الأمر طويلًا هكذا.. إذن؟

لماذا لا يتغير العالم؟ لماذا لا يتغير ما دام أن هذا لن يحدث؟

يفكر في اللبن الذي تدبره له الحكومة دون مقابل، وفي طاقم أسنانه الذي تعده له الدولة، دون اللجوء لساعي البريد، ومن جديد، سيمكنه أن يمضغ ويعض طرف الرغيف الطويل، ثم يضحك، ليس أمامه سوى الحلم، إنه شيء رائع، يتلعب لعبه محدثًا ضجة كأنه يقضم لقمة ناشفة.. ثم يعلو كل شيء، ويسقط الرماد فوق القرية، وفوق المنزل، وفوق المخ، ينام بضع دقائق، ثم يعاود الاستيقاظ، ويدرك أنه ما يزال في بيته - كالعادة - والقطعة في مكانها، ويحس بالارتياح، ويعاود التفكير: النقود، صديقتي النقود...

كم هو سعيد.

تأمل الخوري

راحت ظلال الليل تزحف شيئًا فشيئًا في فناء بيت
الكاهن، حول حقل الكاموميل، وقد استظل بالقديس
أنطوان، والآنسة «فيرن»، مساعدة الآنسة «ماسو»،
والسيدة «سيكاني»، اللتين

26

عرّفتا «سلسيتين» إلى السيدة «كيروول» بأعلى، في غرفته فإن
السيد القس يروح ويعجيء حول سريره القريب من المدفأة يحس
بالعصبية، إنه لم يسمح بالجثو على ركبتيه أثناء صلواته.

صعد صوت السيدة «كيروول» إليه عبر النوافذ نصف المفتوحة:

- «آه لو تدرकिन الأشياء التي يُحكى عنها في الفصل، بحجة أنه

علم الحيوان». تنهدت الآنسة «فيرن»:

- «إنها مدرسة بلا رب».

رددت «سلسيتين» في تخوف:

- «مدرسة بلا رب».

العينان نحو الأرض، والذقن فوق الصدر، والذراعان معقودتان،
راح القس يبحث عن شيء يللمه.

«يا إلهي اغفر لي شجاعتي المفقودة فأنا أختنق.. أعرف جيدًا
أن كل العمال لم يتم استدعاؤهم إلى مزرعة السيد لقضاء حاجاتهم
وأن الكثيرين منهم يجب ألا يعرفوا لذة البيع والشراء، وأن مكافآتهم
ستكون أكبر مما ينتظرون بكل ثقة ودون أن يهمسوا.. لكنني
ألماني.. أؤدي واجبي الذي اخترتني له بكل ما بوسعي. يجب
أن أحب مستقبلي وسوف أجد في نفسي الحب أقل من المرارة..
ساعدني أن أحب هذا الجيش الملحّد. هذا الجيش الجاحد،
هؤلاء الذين طردوك من منازلهم، ولم يعد لك مكان لديهم.
ولا في حيواتهم ولا في مصائرهم التي تنتظرهم أواخر
حياتهم، ولا كيف أن هذه الحياة بالغة القصر! يجب أن
يشكوهم إليك، لا أملك سوى أدائهم.. وحقدهم! يا إلهي
اغفر لي.. هل يجب أن أكون أكثر قوة منك؟ لقد قلت: أنا
رحيم بهم جميعًا وأنت الذي قلت أيضًا: اغفر لهم، لأنهم
لا يعرفون ما يفعلون..».

بأسفل، تابعت أحاديث القديسات، حكّت الأنسة ماسو:

- «اشتريت له نبات الحميض وفي المساء لن تكون الأسرة

جاهزة».

وأيدتها الأنسة «سيكاني»:

- «أراهم من نافذتي . دققوا . إنها كسولة للغاية، وزوجها يستيقظ في الصباح كي يعد قهوته».

أعلنت السيدة «كيرول»: «أنها مغفلة . ومسرفة وترمي كل ما يكسبه زوجها فوق ظهرها .

رددت الأنسة «سيكاني»:

- «ليس هذا مثل الأخت إنها ترتدي دائماً ملابس الفقيرات» .
تدخلت الأنسة «فيرن»:

- «على العكس فلديها لسان الأفعى ! تردد دائماً كل ما هو سيء» .

كررت «سليستين»:

- «نعم، لسان الأفعى» .

راح القس يبحر عبر غرفته، انحنى فجأة أمام صليبه:

«يا إلهي، بماذا أجيبك وأنت تحاسبني عما فعلته في مهمتي التبشيرية؟ كيف تغفر لي أفعالي في وظيفتي ومشاعري تجاه المؤمنين، لمن الخطيئة إذا لم تكن جرائم في هذه الأرض الخصبة؟ بلا شك، قس آخر أقل إيماناً يعرف كيف يرفع البذور

الطيبة.. إذا كان حماسي أكثر كبراً، وكرامة من ثقتك، وحبك لي، فإنك بلا شك، سترفع هذه الجبال الملحدة، فأنت تعرف كيف تغير الأرواح المظلمة بالشعلة التي وضعتها في قلب عبادك.. لأنهم كلهم عبادك، يا إلهي ليس هذا سوى انعكاس لمهابتك..».

من الفناء، انطلق صوت الأنسة «فيرن» الحاد:

- «لقد أعلنها الأنبياء: عندما ستمشي السيارات وحدها، وسيطير البشر في الجو وعندما يُرذَن النساء أن يعشن مع الرجال، فسيحكم على العالم بالنهاية، وستحل القيامة».

قام القس، وبكل هدوء أغلق نافذته على ذلك العالم المدان.

السيد إنبرج وأخته

27

منذ أمد طويل، كان على السيد «إنبرج» أن يترك دراسته الخاصة وقراءته. حماه، الذي يسكن المدينة الكبرى، يدير له احتياجاته الرئيسية، وفي كل مساء، وفي منتصف الليل

نرى هذا المعلم وقد جلس أمام مصباحه، الضوء الوحيد المنبعث في القرية المظلمة يسطر مسودات النشرات العلمية حول الأدوية، والأسمدة التي يرسلها إلى معامل المنطقة.

وفي الصيف، وقبل أن يبدأ عمله، يجلس لبعض الوقت أمام عتبة الفصل على مقربة من أخته. وأمامهم، فوق الأرض الطينية، التي صارت رمادية، لا يمكن تمييز ظلال الكستناء، قد تسقط ثمرة ناضجة وتندفع من قرننها في انفجار كتوم تقول بصوت خفيض للسيد «إنبرج».

- «هذه الثمار كسرت لي «البلاط»».

وأقل إصلاح يتطلب كتابة تقرير ومقايسة: سيدفع ثمن البلاط من جيبه قبل الشتاء. ودائمًا المدرس لا يراه أحد يرد بعد صمت،

سوف تنتهي السنة الدراسية، مثلما انتهت كل السنوات السابقة دون أن يأتي أحد كي يختبر جهوده، أو يشجعه على ذلك.

في البداية تحت سقف منخفض، في غرفة بالغة الصغر على السرير الكبير، والمهر، كان الأطفال يكون، وقد أرهاقهم الحر، دفعت السيدة «إنبرج» ابنتها الكبرى نحو النافذة، وبلا رحمة، راحت تقص شعرها، حدقت الطفلة - بعد أن فقدت صبرها - بينما لمع وجه الأم بالعرق، وهي تصرخ وتهدد، يصفعها في الظلام، هناك غلام، يضرب بيديه في الجردل، حيث اللفافة القذرة، وفي أعماق المهد كي يجذب الانتباه إليه، غضب الرضيع، وهو يضرب في الهواء بكل قبضته.

وظلت الأنسة «إنبرج» أكثر صمتًا من المعتاد، قالت:

- «هيا يا أختي».

ردت المدرسة بحركة بطيئة للغاية، شرحت:

- «استيقظت الأنسة «كيرول» يا لها من امرأة، قالت لي: الطفلة

تعرف كل شيء فيما يخص مستقبلها! لا تريد أن تصير موظفة، على الأقل لتكن مدرسة!». وسمع السيد «إنبرج» ضحكها الساخر.

انبعثت ضجة، أغمي عليها بين جدران الفناء ثم سمعت خطوات على الطريق، عبر الحاجز الحديدي، وظهر شبح خيال المائة الذي عاد من جولته، وقد غطى عينيه بالكاب وحمل عصاه في ذراعه.

أضافت الفتاة:

- «سوف أرغمها على أن تعمل بدون مقابل».

لم تقل كم هي متعلقة بهذه الصغيرة، إنها المرة الأولى، خلال سبع سنوات، تلتقي فيها تلاميذها. بطبيعتها راغبة في التدريس وأن تربي الأنسة «إنبرج» التي داعبت حملها، وأن تمارس سطوتها المهنية عليها، وأن تشكلها، وأن تثيرها بالاتصال بها. هذه هي مكافأتها للسنوات السبع، بشكل خصب.. تسكب الدموع من عينيها، تتساءل هذا المساء إذا كانت قد ضمت بكل نقاء في شبابها بقلب امرأة ومشاعر الأمومة التي منحتها السعادة.

صرصرت النقالة التي يصحبها صبي يعرفه «إنبرج»، إنه الصغير «فيجو» ابن عامل السكة، أطلق المدرس ضحكة، ونظرة على تلميذه، لكن الطفل مر وهو يصفر، دون أن يدير رأسه نحو مدرسته.

وكانهم يفكرون في الوقت نفسه في الشيء نفسه، تنهدت الأنسة «إنبرج»:

- «هل تعتقد، أن الأمر متشابه في كل أنحاء فرنسا؟».

ومن أجل إجابة مثالية، فإن السيد «إنبرج» طرقت طرف لسانه مرات عديدة بأسنانه مثلما يعمل في الفصل من أجل أن يسود الصمت، هناك أفكار عليه أن يعلنها بوضوح، إذا احتفظ دوماً بشجاعته.

وحل الليل تقريبا.

طوال بضع دقائق، ظل الأخ وأخته ساكنين، كل منهما على مقربة من الآخر، يظله الظل، وبسرعة انزلق ضوء من الأفق.

همست الأنسة «إنبرج»:

- «ضوء الحرارة».

- فكر المدرس في عمله وتلاميذه، وفي حصة الإملاء في الغد، كل شيء متأصل في داخله، هذا الإحساس الذي يدفعه لإنجازه واجبه، وأن يعمل كل يوم أكثر، وأفضل من البارحة.

تحلم الفتاة بوحدها، وبالحياء في هذه القرية، وفي هذه الإنسانية الحيوانية التي تسبح نحو الحضيض، «لماذا العالم هكذا؟ هل هو خطأ المجتمع؟».

احتفظت لنفسها بقلب واثق، وبالكثير من العبقرية، التي لا تجعلها تشك في طبائع البشر، لا، لا! ليحكم مجتمع جديد - أفضل - منظم، أقل إثارة وأقل ظلماً وسوف نرى أن الإنسان يمكن أن يصير أفضل في النهاية.

وما أن بدأت الساعة تدق التاسعة فوق رؤوسهم حتى قام

«إنبرج» وردد:

- «عمت مساء، يا شقيقي».

مسحت على جبهته دون أن ترد، لن تذكر مثلها النوم الثقيل في
الليلة الماضية، وفجأة، عاد إلى ذاكرتها كابوس من العبث كانت قد
نسيته تمامًا، وراح أخوها يتمدد فوق السرير بملابس نومه، وهو
يخفق زوجته في صمت بحبل غسيل.

قبل أن تقرأ

Roger Martin Du Gard

روجيه مارتن دوجار

في عام 1937م، عادت جائزة نوبل مرة أخرى إلى فرنسا. وذلك من خلال كاتب أقل شهرة في عالمنا العربي. قياسًا إلى أقرانه الذين فازوا بجائزة نوبل، وهو «روجيه مارتن دوجار»..

وحياة «مارتن دوجار» هي أدبه، كما أن أدبه هو حياته، فليست هناك أحداث مهمة في سيرة الكاتب سوى إبداعه، فهو من مواليد مدينة «نويللي» في 23 مارس عام 1881م في أسرة ريفية.

كان الأب «بول» يتمتع بشراء ملحوظ، مما سمح للابن أن يكتب رواياته وأدبه دون أن يضطر إلى ممارسة أية مهنة أخرى من أجل توفير لقمة العيش. وهي سمة بدت واضحة لدى الفائزين بجائزة نوبل مثل «توماس مان»، حصل على البكالوريا عام 1900م ومن أجل الهروب من الخدمة العسكرية. دخل مدرسة الميثاق الدينية لمدة ثلاث سنوات. ولم يستفد قط من الشهادة التي حصل عليها طيلة حياته. وفي عام 1906 تزوج من فتاة ثرية. وبدأ يمارس الإبداع. فكتب عددًا من الروايات التي لم يتمكن من الانتهاء منها، ثم نشر

رواية ذاتية تحت عنوان «أصبح» تناول فيها أفكار أبناء جيله. ثم جاءت روايته «جان باروا» التي تحمس لها الناشر «جاليمار».

ارتبط «دوجار» بصداقة مع عدد من أبناء جيله مثل «أندريه جيد»، و«كوكتو»، و«شلومبرجر». وفي أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى توقف عن الكتابة. كرس كل وقته لتأليف روايته «التيبو» التي استمر يكتبها طوال عشرين عامًا، نال أثناءها جائزة نوبل في الأدب. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية كان عضوًا نشطًا في المقاومة، هو الذي هرب إلى مدينة نيس حيث عكف على كتابة رواية جديدة هي «الملازم - الكولونيل مومور» التي لم ينته منها ونشرت لأول مرة عام 1983م..

يقول الناقد الفرنسي «رينيه جارجيلو» المدرس في جامعة باريس: إن دوجار قد اكتشف حلاوة الأدب في سن التاسعة، حينما أعطاه أحد زملائه كراسًا بها قصص قام بتأليفها. وقد تكثفت قراءة «دوجار» في هذه السن في مجال الشعر. ثم ما لبث أن هجره حين قرأ رواية «الحرب والسلام»، وهو في السادسة عشرة. والجدير بالذكر أنه في خطبته التي قرأها أمام أكاديمية استكهولم عام 1937م اعترف بفضل «تولستوي» عليه. إلا أن هناك أربعة أديباء آخرين كان لهم نفس التأثير عليه، هم «جان جاك روسو»، و«مونتيني»، و«هنريك إبسن»، و«رومان رولان». حيث كانت الأعمال الكاملة لكل منهم مرتبة في مكتبته، بالإضافة إلى أعمال «بلزاك»، و«فلوبير»، و«زولا»..

وعندما بدأ الإبداع عام 1900م أراد أن يكون كاتبًا من كل أعماقه. وفي عام 1901م كتب روايته، التي لم تكتمل، المعنونة بـ«البللوري» حول شاب يحاول أن يعلم امرأته الأخلاق الحميدة، وهو يخلصها من كل التزمت الذي يجثم على صدرها..

وفي عام 1906م كتب رواية «حياة قديس» حاول فيها تأريخ حياة رجل دين. وقام بإعادة كتابة الفصول الأولى من الرواية عدة مرات. ثم لم يتمكن من تكملتها وأحس أنه لن يكمل حياته الأدبية إلا إذا كتب شيئًا مختلفًا..

وفي عام 1908م وجد أن أفضل شيء هو أن يكتب عن نفسه. فجاءت روايته الذاتية «أصبح»، وبطل الرواية هو شخص حالم يحزن لأن يكون أديبًا. إلا أن طبيعته وتربيته تمنعه من أن يفعل ذلك، ولكنه في النهاية ينجح..

وقد كان «دوجار» دقيقًا في عمله، حيث راح يجمع الوثائق والمراجع الخاصة براويته «جان باروا» طوال ثلاث سنوات قبل أن يكتب فيها سطرًا واحدًا. و«باروا» هو طيب، حصل أيضًا على شهادة في علوم الطبيعة وأصبح مناضلًا في مجال الفكر، فاشترك في النضال الاجتماعي، وانضم إلى «إميل زولا» في قضية الضابط الفرنسي الشهير «دريفوس». ويعتبر النقاد هذه الرواية بمنزلة العمل الإبداعي الأيديولوجي الأوحى في ذلك العصر، وأهم الروايات النضالية في القرن العشرين..

وأثار الشكل الروائي كثيراً الكاتب «مارتن دوجار»، فراح يختار صياغات متعددة، وجديدة استفاد فيها من فنون التصوير والسينما، وصنع ما يسمى بروايات الحوار، التي تجمع بين الحوار الداخلي، أو الحوار المتبادل. وقد دفع هذا الناشر «جراسيه» إلى رفض هذه الرواية قائلاً: «إنها أقرب إلى ملفات التحقيق»..

لكن الكاتب وجد مساندة من الناشر «جاليمار». خاصة بعد أن كتب له «أندرية جيد» بريقة شهيرة جاء فيها: «إنها المسودة الأكثر روعة، فانشرها بلا تردد، ثم أضاف في بريقة أخرى: «إن من كتب هذه الرواية لا يمكن أن يكون فنناً، بل مقداماً»..

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى سُغِلَ «دوجار» بالكتابة للمسرح. وقدم «وصية الأب لولو» عام 1940م ومسرحيات أخرى، كما كتب مقالات. وذلك قبل أن يكرس عشرين عاماً من حياته لتأليف رواية «التيو» وهو اسم نوع من الأقمشة. لكنه هنا في المقام الأول اسم أسرة..

وكعادته راح يجمع الوثائق والمراجع التي تساعد في عمله الجديد. وقبل أن يشرع في تأليف الرواية كتب لها سيناريو، أسوة بالسينمائيين، في أربعين صفحة..

وقد صدرت الرواية تباعاً كلما انتهى من كتابة جزء من أجزائها، وهي رواية نهريّة ضخمة، تتبع حياة أسرة «التيو» بداية من عام

1904م وحتى عام 1940م. فنحن أمام أربعة أجيال متتابعة يتسلم كل جيل منها الراية ممن سبقوه. وهناك أسرة أخرى هي أسرة «فونتين» ارتبطتا فيما بينهما بصداقات، ثم دخلتا في صراعات مريرة. وفي هذا النوع من الروايات كثيرًا ما نجد أنفسنا أمام شخصيات عديدة وأحداث لا تنتهي. وقد كان في نية الكاتب أن يستكمل كتابة هذه الرواية لولا المرض الذي أصابه قبل نهايتها، فبدت رغم ضخامتها وكأنها رواية لم تكتمل بعد.

ومثل هذه الروايات تبدو كأنها سجل لحياة أسرة. أو بمنزلة وثيقة لمآساتها، وسعادتها. ويقال إن الكاتب استوحاها من هذا الكتيب الصغير الذي أهداه له أحد أصدقائه وهو في سن التاسعة. فكان فاتحة له لدخول عالم الأدب..

أما آخر رواية للكاتب فهي: «الملازم - الكولونيل مومور»، وهي أقرب إلى يوميات مناضل، صاغها الكاتب فيما يشبه القاموس أو الموسوعة.. فكل ما يتعلق بحياة بطله موجود في صفحات محددة. وعلى سبيل المثال فإن ما يتعلق بحياته الدينية موجود في صياغة روائية في فصل منفصل عن حياته السياسية، ولا شك أن هذه الحياة التسجيلية هي أيضًا توثيق للعصر. ورغم أن الرواية لم تنته، إلا أنها شاهد جيد على العصر الذي تناوله، بالإضافة إلى أنها من أولى التجارب الشكلية في هذا الطراز من الرواية.

وافته المنية في 22 من أغسطس عام 1958م.

«لسنوات عديدة.. شعب فرنسا الصغير استطاع أن
ينحني دومًا داخل هذه الكنيسة المقامة الآن، تُرى ماذا
يجبون فيها، هل هو الحب، أم الأبحاث، أم الحاجات
الروحية البالغة الضمور؟.. أم هي الخشية؟ الخشية من
الله، والخشية من رجال الدين؟ والتخوف المألوف من
المصير المحتوم؟».

سلسلة «روايات جائزة نوبل» إطلالة على أهم
الروايات التي حصل كتابها على جائزة نوبل فرع
الآداب، لما تحمله هذه الروايات من إبداع ينقل القارئ
إلى عالم آخر مليء بثقافات وتجارب مختلفة لتنوع اللغات
المترجم منها الروايات، مع اختيار دقيق للمترجمين
الأفذاذ، وتقديم مقدمات وافية عن المؤلفين والروايات؛
لشري عالمنا الأدبي العربي بهذه الثقافة الرافدة؛ وليطلع
الشباب والكبار على أهم أعمال هذا الأدب المترجم إلى
العربية.

